

موسوعة
لبنان
تاريخ، سياسة وحضارة
الإمارة المعنيّة



بين الأمس واليوم

الجزء السابع

الإمارة المعنيّة

حسن محمّد

الفصل الأوّل

تأسيس الدولة العثمانية

أصل العثمانيين ودولتهم

يعود أصل العثمانيين إلى قبيلة أو عشيرة قايي التي تُنسب إلى طائفة التركمان الرّحل من الشعوب المغوليّة، ونزحت من موطنها الأصلي في ضواحي خوارزم الواقعة في أواسط آسيا بين جبال التاي شرقاً وبحر قزوين غرباً سنة ١٢٣١ هرباً من بطش القائد المغولي جنكيزخان.

وتجدر الإشارة إلى أن القبائل التركية ومنها عشيرة قايي اعتنقت الدين الإسلامي بعد وصول العرب في فتوحاتهم إلى أواسط آسيا خلال العهد الأموي، ومنذ ذلك الوقت، توافد الكثيرون منهم إلى البلاد العربية حيث استعان بهم العباسيون في تثبيت سلطتهم وبرز منهم قادة أسسوا دولاً مستقلة عن الدولة العباسيّة: مثل الدولة الطولونيّة والإخشيديّة والسلجوقيّة، وأسست فيما بعد الدولة العثمانيّة التي سيطرت على مناطق واسعة من العالم القديم.

وعند نزوح قبيلة قايي، اتجهت تحت إمرة سليمان شاه إلى جبال طوروس، في آسيا الصغرى، وحلّت في مناطق شمال غرب أرمينيا التي كانت خاضعة لسيطرة السلاجقة الأتراك، حيث أحسن السلطان علاء الدين السلجوقي ملقاهم وأكرم سليمان شاه واستخدمه.

وبعد وفاة سليمان شاه، خلفه ابنه أرطغرل أميراً على عشائر كثيرة من التركمان، واستقر قرب مدينة بروسا بموافقة سلطان قونية السلجوقي. وقد تعاون أرطغرل مع السلاجقة ضد البيزنطيين فسمحوا له بتوسيع حدود منطقته، وعند وفاته خلفه ابنه عثمان سنة ١٢٩٦.

عمل عثمان منذ توليه أمور قبيلته على توسيع منطقة نفوذها، فتمكن من الانتصار على البيزنطيين والسيطرة على مناطقهم المطلة على البحر الأسود شمالاً وبحر مرمرة غرباً.



قبائل الأتراك الرُحل

تاسيس دولتهم

هذه الانتصارات دفعت بالأتراك إلى الانضواء تحت راية عثمان، فزاده ذلك قوة ومناعة جعلاته يعلن استقلاله عن السلاجقة بعد هزيمتهم أمام المغول. وتزامن ذلك مع وفاة السلطان علاء الدين السلجوقي من دون أن يترك وريثاً له، الأمر الذي دفع عثمان إلى الثورة والتحكم بأمور السلطنة السلجوقية وأسس دعائم الدولة العثمانيّة في أوائل القرن الرابع عشر على جزء من مملكة بورصة وبلاد الأناضول، وسنّ لقومه قواعد وأنظمة جديدة، وجنّد جيشاً جراراً وأقام حروباً عظيمة كانت نتيجتها فتوحات كبيرة لقب بسببها بالغازي، ونقل مقرّ ملكه إلى مدينة يني شن،

وتوفي عام ١٣٢٦ بعد أن حكم فترة ٢٧ سنة. وكان المؤسس الحقيقي للدولة العثمانيّة.

انتقلت أمور الدولة بعد وفاة عثمان إلى ابنه أرطغرل، فسار على خطى أبيه وقام بحروب كثيرة، ووسّع نطاق مملكته، ونقل مركزها إلى بورصة وحسنها، واهتم بالجيش وأنشأ فرقة الإنكشاريّة (الجنود الجدد)، وعنهم يقول بعض المؤرخين الأجانب إنهم من أولاد الأسرى النصارى الذين أسرهم عثمان وابنه أورخان.

التوسّع العثماني

وبعد تنظيمه الأمور الداخلية لسلطنته، وتقسيمها إلى ولايات، اتجه أورخان بجيشه إلى بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل أهلها بالحسنى. وترافق ذلك مع الانقسام والاضطراب الذي ساد دولة الروم، مما أدّى إلى انقسامها ولجوء بعضها إلى العثمانيين، الأمر الذي سمح لهم القيام بفتوحات جديدة بقيادة سليمان ابن السلطان أورخان عام ١٣٥٩، حيث اجتازت جيوشهم بوغار خباق وفتحت مدينة غاليبولي، باب القُسطنطينيّة.

وتوفي السلطان أورخان عام ١٣٦٠، مغموماً على ابنه سليمان، لأنه مات قبله وخلفه ابنه مراد الأوّل.

إذن، في عهد أورخان تمكن العثمانيون من السيطرة على بعض المدن البيزنطيّة، فاحتلوا نيقوميديا ونيقية، وحاصروا القسطنطينيّة لكنهم تراجعوا عنها، وعبروا مضيق البوسفور واحتلوا مدينة غاليبولي في إقليم تراقيا، التي أصبحت قاعدة للتوسّع العثماني في البلقان فيما بعد.

وفي عهد أورخان أيضاً، شهد المسلمون أول استقرار لهم في أوروبا، وأصبحت السلطنة العثمانيّة تمتد من أنقرة في آسيا الصغرى إلى تراقيا في البلقان.

أما مراد الأوّل، فقد كان شجاعاً، واستولى العثمانيون في عهده على أدرنة واتخذوها عاصمة لهم وأخضعوا الأمراء الذين كانوا يحتفظون باستقلالهم في الأناضول، واستولوا أيضاً على قرمان ومدينة كوتاهية بتزويج ابنه لابنة أميرها، ثم أخذوا معظم مقدونيا والأرناؤوط، واحتلوا إقليمي الصرب والبلغار، الأمر الذي حدا بأمراء البلقان إلى التحالف والتوحد بقيادة ملك الصرب نزولاً عند رغبة البابا، وواجهوا العثمانيين في معركة قوصوه في ٢٨ أيلول عام ١٣٨٩ التي سقط فيها مراد

الأوّل صريعاً حيث غدر به جندي بلغاري كان متخفياً بين القتلى.

وخلف مراد الأوّل ابنه بايزيد الذي تابع أعمال أسلافه في الفتوحات ليخضع ما تبقى من ممالك صغيرة في الأناضول ويحتلّ الروملي ومقدونيا وبلغاريا وينتصر على التحالف الأوروبي الجديد بقيادة ملك المجر في موقعة نيقية ويثبت أقدام امبراطوريّته في البلقان.

بعد ذلك، حاصر محمد الأوّل القسطنطينيّة وامبراطورها مانوئيل باليولوغس، ولكنه عقد معه صلحاً مدته عشر سنوات، ويقضي بأن يدفع الروم للسلطان ثلاثين ألف ريال وبأن يجعل في القسطنطينيّة قاضياً للإسلام ويبني لهم مسجداً.

وفي المرة الثانية، حاصر محمد الأوّل القسطنطينيّة، وكاد أن يسقطها لولا أن الغزو المغولي بقيادة تيمورلنك أجبره على التراجع عنها والتوجه لمحاربته. إلا أن الحظ لم يحالفه ووقع أسيراً بين أيدي المغول، فقُسّم الملك بين ولديه ليستفرد به لاحقاً السلطان محمد الأوّل الذي أرجع للروم الولايات التي كان والده ضمها، وكان أوّل من شرع بتعليم العساكر البحرية ونقل مقرّ السلطنة إلى أدرنة، ولما توفي خلفه ابنه مراد الثاني عام ١٤٢١.

وكان مراد الثاني مغرماً بالفتوحات فجهّز جيشاً وسار به إلى القسطنطينيّة، لكنه عاد وتراجع عنها أيضاً ليواجه حملة أوروبيّة كبيرة، مؤلفة من البلغار، والمجر وثوار البلقان، وانهزم أمامها في موقعة نيش عام ١٤٤٣، مما اضطره إلى توقيع صلح مع ملك المجر لمدة عشر سنوات.

ولما رأى مراد الثاني أن الهدوء يسود الوضع الداخلي للسلطنة، تنازل عن السلطة لابنه محمد الثاني الذي لقب بالفاتح، وانصرف إلى العبادة. لكن الأوروبيين انتهزوا الفرصة ونكثوا بصلحهم معه وفسخوا الهدنة، مما دفع السلطان إلى العودة إلى العرش ومواجهة الحملة الأوروبيّة في ١٠ تشرين الثاني من العام ١٤٤٤ في معركة ڤارنا التي انتهت بهزيمة الأوروبيين ومقتل ملك المجر في المعركة.

سقوط القسطنطينيّة

وتوفي مراد الثاني مصاباً بداء النقطة، فخلفه ابنه محمد الثاني الذي وضع نصب أعينه إسقاط عاصمة الروم، القسطنطينيّة، وفقاً لوصية والده. وكان يحكمها آنذاك قسطنطين بن عمانوئيل الذي تبلَّغ هدف السلطان فأرسل إليه بعثتين متتاليتين لتهدئته، لكن السلطان لم يتراجع.

وعمل محمد الثاني لتحقيق هدفه على جبهتين متوازيتين، فعمد من جهة إلى سياسة التصالح والتسامح مع عدد من ملوك أوروبا؛ في وقت حاول فيه قسطنطين الاستنجاد بهؤلاء الملوك وقدَّم وعداً للبابا بضم الكنيستين، لكن الروم أنفسهم كانوا يفضلون الخضوع للمسلمين على الخضوع للبابا حتى أن وزير ملكهم الدوق نوثاراس قال: «أحب أليَّ أن أرى في القسطنطينيّة تاج السلطان محمد من أن أرى إكليل البابا».

أما الجبهة الثانية التي أولاها السلطان اهتمامه، فهي إعداد جيش قوامه أكثر من ١٦٠ ألف مقاتل من جنود الفرسان ومشاة الإنكشاريّة مجهزين بالمدافع والأسلحة الثقيلة، وعزّزه بأسطول بحري مؤلف من ٣٠٠ سفينة، وعمد كذلك على بناء قلعة رمللي حصار على مقربة من القسطنطينيّة، فدكَّ أسوارها بالمدفعية.

عندها، أرسل امبراطور الروم قسطنطين إلى السلطان وفداً للاحتجاج على بناء قلعة روملّي حصار، فما كان من محمد الثاني إلا أن أمر بإعدامه معلناً بذلك بداية المعركة الفاصلة مع البيزنطيين، فارضاً حصاراً برياً وبحرياً على المدينة استمر ٣٥ يوماً، رافقه قصف عنيف لأبراجها وأسوارها.

ومع ذلك، أبى الامبراطور قسطنطين تلبية شروط السلطان وتسليم المدينة، وصمم على الدفاع عن القسطنطينيّة. لكن الحرب خذلته وسقط قتيلاً في ساحة المعركة في ٢٩ أيار عام ١٤٥٣، وسقطت المدينة العظيمة بأيدي السلطان الذي أقام للروم فيها بطريركيّة وعيَّن بطريركاً سلمه خاتمها وفق عادات الملوك، وجعل من القسطنطينيّة مقرّاً لسلطنته.



السلطان محمد الثاني

وكان لسقوط القسطنطينيّة نتائج عدة يمكن تلخيصها على الشكل التالي:

ـ القضاء نهائياً على الامبراطورية البيزنطيّة.

ـ تحوُّل القسطنطينيّة إلى عاصمة للدولة العثمانيّة الإسلاميّة.

ـ هجرة علماء القسطنطينيّة وفلاسفتها إلى إيطاليا حاملين معهم علوم اليونان ومؤلفاتهم.

ـ انتهاء عهد القرون الوسطى وبدء النهضة في أوروبا.

ـ بروز الدولة العثمانيّة كدولة كبرى على المسرح الدولي أرهبت الشرق

والغرب على السواء، وذاعت شهرة سلطانها محمد الثاني في العالم الإسلامي، ولقب بمحمد الفاتح.

السلطان سليم ومواصلة الفتوحات

محاربة الصفويّين

خلف السلطان محمد الفاتح ابنه بايزيد الثاني الذي أوصى بالسلطة لابنه أحمد، لكن ابنه الثاني سليم رفض ذلك، وأقدم على محاصرة والده وأجبره على التنازل عن العرش لمصلحته، وأخضع أخاه أحمد الذي حاول التمرد عليه. وتولى السلطان سليم عرش السلطنة منذ عام ١٥١٢ وحتى عام ١٥٢٠.

وإذا كان إسقاط القسطنطينيّة الشغل الشاغل للسلاطين الذين سبقوه، فإن السلطان سليم اتجه إلى جنوب السلطنة وشرقها، وتحديداً لقتال الصفويّن في بلاد فارس، والمماليك الذين سيطروا في تلك الفترة على سوريا ولبنان.

وقبل تعداد أسباب الصراع بين الصفويّن والعثمانيّن لا بد من الإشارة إلى أن الصفويّن من أصل تركي ينتسبون إلى رجل مسلم هو صفي الدين، أما الدولة الصفوية فقد أسسها إسماعيل الصفوي (١٥٠٠ ـ ١٥٢٤) الذي استولى على تبريز في بلاد فارس وجعلها عاصمة لدولته، وأعلن نفسه شاهاً متخذاً المذهب الإسلامي الشيعي ديناً رسمياً لدولته.

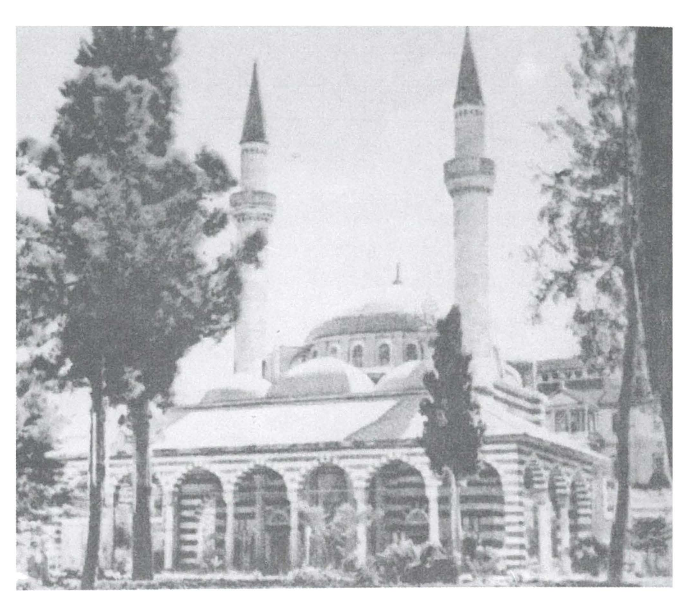
أما أسباب الصراع الصفوي ـ العثماني فهي:

ـ ثورة المسلمين الشيعة في آسيا الصغرى ضد العثمانيين بتحريض من الشاه إسماعيل الصفوي نفسه.

ـ رغبة الشاه إسماعيل في الانتقام من العثمانيين الذين ارتكبوا مجازر في حق المسملين الشيعة في آسيا الصغرى.

ـ إيواء الشاه إسماعيل لمراد بن أحمد الذي تمرد على السلطان سليم.

ـ لكن السبب الأهم في الصراع الخفي بين العثمانيين والصفويين يبقى على



الجامع الذي بناه السلطان سليم في دمشق

تزعم العالم الإسلامي، إذ أن الصفويين أخذوا في نشر الدعوة الشيعية التي كانت مزيجاً من الدين والسياسة، بين الأتراك والفرس في آسيا الصغرى. وبما أن إسماعيل كان يعتبر الزعيم الروحي عند الشيعة، فإنه يستطيع استمالة الشيعة إليه في كلّ قطر لنصرة قضيّته. وأسّس طريقة صوفية عرف أتباعها باسم «قزل باش» (ومعناه أصحاب الرؤوس الحمراء، نسبة إلى لباس الرأس الأحمر الذي كانوا يلبسونه). وقد توطدت أركان طريقتهم في تركيا بحيث أن التشريع الذي وضعه مصطفى كمال عام ١٩٢٥ عجز عن القضاء على طريقتهم هذه.

إذن، كانت الظروف السياسية والأسباب مهيأة لمعركة عسكرية بين العثمانيين والصوفيين. وفي شهر آب عام ١٥١٤ تلاقى جيشا السلطان سليم وإسماعيل

الصوفي في سهل جالديران بالقرب من تبريز، ودارت بينهما معركة قويّة لم تستطع خلالها قوات الصفويين من الصمود أمام الجيش العثماني الذي تابع ملاحقة العدو المنهزم إلى مشارف عاصمته تبريز فاحتلها واستولى على قسم من العراق وأرمينيا.

وقبل معركة جالديران وهزيمة الصفويين، وجد، المماليك أنفسهم في حالة عجز ووهن بين دولتين ناشئتين تتميزان بالقوة، في حين كانت علاقاتهم مع العثمانيين دخلت طور التوتر في عهد خشقوم (١٤٦١ ـ ١٤٦٧)، ومحمد الفاتح. لكن ظروف الحرب عندها لم تكن قد نضجت؛ إلا أن ربط المماليك مصيرهم بمصير الصفويين على أساس أن خطرهم على سيادة المماليك في سوريا ولبنان أقل من خطر العثمانيين جعل هذه الحرب هي الأقرب في العلاقة بينهم.

القضاء على المماليك

إلى ذلك، كانت للحرب بين العثمانيين والمماليك أسباب أخرى هي:

ـ عزل العثمانيين حاكم إمارة البستان الموالي للمماليك.

ـ إتهام المماليك للعثمانيين بمنع التجار من إحضار الشراكسة إلى الدولة المملوكية.

ـ غضب العثمانيين من اتصالات المماليك السريّة مع الصفويين.

ـ إيواء المماليك لبعض المطالبين بالعرش العثماني.

ـ فشل المفاوضات التي جرت بين الطرفين لحلّ الخلافات.

وهكذا تضافرت كل العوامل والأسباب للحرب بين العثمانيين والمماليك، حيث زحف سلطانهم قانصوه الغوري على رأس جيش مصري إلى شمالي سورية بحجة التوسط بين العثمانيين والصفويين، مصطحباً معه لإخفاء أهداف حملته الخليفة المتوكل. لكنه في الواقع كان يهدف إلى نصرة حلفائه الصفويين.

إلا أن السلطان سليم عرف عبر تقارير جواسيسه بحقيقة نوايا قانصوه الغوري. وعندما بعث هذا الأخير بوفد لمقابلة السلطان العثماني، قام العثمانيون

بدل حسن وفادته بقتل أفراد الحاشية المرافقة للموفد وحلق لحيته وأرجعه إلى سيده راكباً على بغل ومعه إعلان بالحرب، إذ أن السلطان سليم قرّر حماية ميمنته من الخطر.

وفي الرابع والعشرين من آب عام ١٥١٦، التقى جيشا العثمانيين والمماليك في مرج دابق بالقرب من مدينة حلب السورية. وكان قانصوه الغوري قد بلغ الخامسة والسبعين من العمر، وكان رجلاً مجرباً في الحرب. لكن ذلك لم يمنع الهزيمة التي ألحقها به السلطان سليم لأسباب عديدة، أهمها أن نائبي حلب خير بك، ودمشق جان بردي الغزالي، هجرا معسكر المماليك وانضما إلى العثمانيين، الذين اعتمدوا على سلاح المدفعية وتجهيز جيشهم بأسلحة حديثة، فيما اعتمد المماليك على سلاح الفرسان. وهكذا انتقلت سوريا ولبنان من سيطرة المماليك إلى السيطرة العثمانية سلماً وظلت تحت الحكم العثماني أربعة قرون متواصلة.

موقف اللبنانيين من الصراع

لما وقعت معركة مرج دابق بين العثمانيين والمماليك، توزعت مواقف الأمراء اللبنانيين بين مؤيد للمماليك يساعدهم عسكرياً كبني بحتر، أمراء الغرب؛ وبين من اتخذ الموقف المتفرج المنتظر ومنهم الأمراء المعنيّون حيث يذكر البعض أن أميرهم فخر الدين أجرى اتصالات سرية مع نائبي حلب ودمشق اللذين خانا المماليك، وانضما إلى العثمانيين، وفهم منها أن الغلبة ستكون للعثمانيين. ولذلك أوعز إلى رجاله قائلاً: «دعونا نتفرج وننتظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه». وبما أنها كانت للسلطان سليم العثماني الذي احتل دمشق بعد مرج دابق، فقد وفد إليه إلى دمشق وفد يضم عدداً من الأمراء اللبنانيين لمقابلة السلطان سليم، ومنهم الأمير فخر الدين الأوّل وجمال الدين التنوخي وعساف التركماني. ولما دخلوا قبّل الأمير فخر الدين الأرض أمام السلطان وألقى بين يديه خطبة هذا نصها:

«اللهم أدام دوام من اخترته لملكك، وجعلته خليفة عهدك، وسلطته على عبادك وأرضك، وقلدته سنتك وفرضك، ناصر الشريعة النيرة الغراء، وقائد الأمة الطاهرة الظاهرة سيدنا ووليّ نعمتنا أمير المؤمنين، الإمام العادل، والذكي الفاضل

الذي بيده أزمة الأمر باد شاه أدام الله بقاءه وفي العز الدائم أبقاه، وخلّد في الدنيا مجده ونعماه، ورفع إلى القيامة طالع سعده، وبلغه مأموله، وقصده... أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتمهيد آمين».

تركت خطبة الأمير المعني الإعجاب لدى السلطان بشخصيته الوقورة وبإخلاصه الذي وصفه البعض بالظاهر، فلقبه بـ «سلطان البرّ» وأقرّه كما سائر الأمراء اللبنانيين على إقطاعاتهم وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانت لهم أيام المماليك. وفرض عليهم ضريبة طفيفة.

وقبل الدخول في تفاصيل الحكم المعني، لا بد من التطرق إلى ما حمله معهم العثمانيون من حضارة وتنظيم سياسي وإدارة، وتعامل إلى سوريا ولبنان.

الحضارة التركية

ليس هناك من حضارة تركية صافية، بل إنها مزيج غريب من حضارات مختلفة لشعوب سيطروا عليها. فقد أخذ الأتراك عن المغول القبلية، والميل إلى التوسع والحرب والقسوة، والبطش؛ وعن الفرس والمصريين فن البناء والتصوير، والرسوم والأساليب الأدبية وعادة تمجيد الملوك؛ وعن البيزنطيين التنظيم العسكري والإداري، إلا أنهم أخذوا الكثير عن العرب.

فقد أخذوا من العرب الدين الإسلامي وما يتضمن من تعاليم ومبادىء اقتصادية واجتماعية، وأخذوا أيضاً العلوم والحروف العربية التي كانوا يكتبون بها لغتهم حتى عام ١٩٢٨، حين استبدلوها بالحرف اللاتيني. وعجزت محاولة مصطفى كمال عن تنقية اللغة التركية من المصطلحات الدينيّة والفلسفيّة والقانونيّة والعلميّة والأدبيّة التي دخلت في صميم لغة الأتراك بسبب اعتناقهم الإسلام واتخاذهم الحرف العربي لتدوين لغتهم. إلا أن الأتراك برعوا في فنّ السياسة والشعر والبناء.

ومن معالم الحضارة التركية في المجال العمراني الجسور والطرقات والخانات، والحمامات الشعبيّة، والقصور، والمتاحف، والمستشفيات، والمساجد. وفي المجالين العلمي والأدبي اهتم العثمانيون ببناء المدارس، وإنشاء المكتبات. وقام من بينهم العلماء، والأدباء والمفكرون والشعراء.

إلا أن الافراط في التقليد، جعل السلطنة العثمانيّة متغافلة عما يجري في العالم من حولها من تقدم ورقيّ. وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تسعى للسيطرة على قوى الطبيعة للاستفادة من طاقاتها ومواردها، وتحقق تقدماً في مجالي العلم والتكنولوجيا، كانت السلطنة تعيش عصراً آخر من الجمود والتقيد بشرائع لا

تتناقض في مضمونها مع التقدم الحاصل. ويذهب البعض إلى حدّ القول أن رعايا السلطنة الأوروبيين كانوا يسكنون أرضاً أوروبيّة، لكنهم لم يكونوا من أوروبا في الفكر والممارسة. ودخلت القلة القليلة من الأتراك إلى المدارس ودرسوا اللغات، وما ترجم عن اللغات الأجنبيّة فقد كان من عمل النصارىٰ واليهود. وساهم كل ذلك في التأخر عن ركب الحضارة وترك أثراً سيئاً زاد في الهوة بين الحاكم والرعية.

تنظيم الدولة العثمانية

١ ــ **النظام السياسي**: كانت السلطة السياسية في السلطنة العثمانية تتكون من:

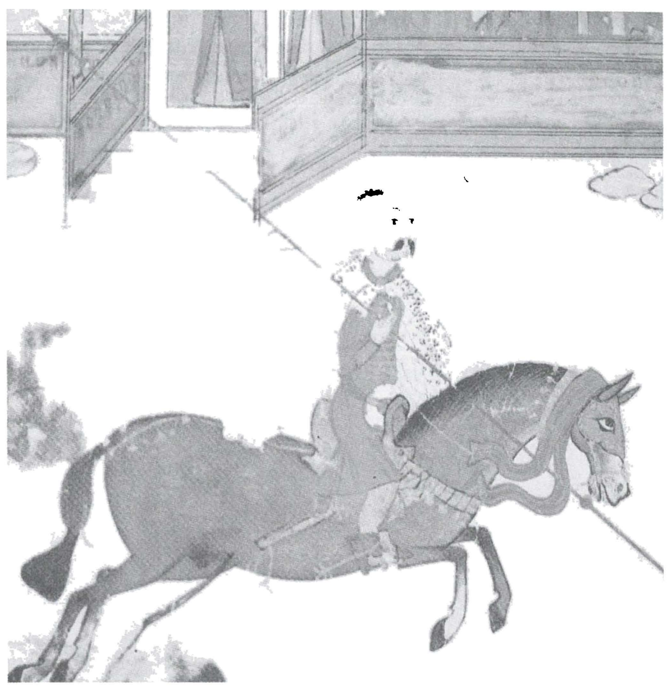
ــ **السلطان**: هو «خليفة رسول الله وأمير المؤمنين»، ورأس الدولة ويجمع في شخصه السلطتين الدينيّة والدنيويّة. وانتقلت الخلافة الشرعيّة الإسلاميّة إلى السلاطين العثمانيين بعد احتلال السلطان سليم مصر عام ١٥١٧، أي بعد معركة مرج دابق بعام واحد تنازل له آخر خلفاء العباسيين في مصر المتوكل على الله.

ــ **الوزراء**: وهم مساعدو السلطان في شؤون الحكم يرأسهم وزير أول (رئيس الوزراء) الذي ينوب عن السلطان في الكثير من الأعمال، ويلقب بالصدر الأعظم.

وكان اختيار الوزراء يتم من بين المتفوقين بالذكاء والمقدرة العقلية في خلال التدريب العسكري الذي يدوم لسنوات عديدة. وكانوا جميعهم يعتبرون «عبيد» السلطان.

ــ **شيخ الإسلام**: وهو الذي يعيِّن كبار القضاة ويصدر الفتاوى في القضايا الكبرى ويهتم بالأمور الدينيّة كافة. وكان شيخ الإسلام يرأس جماعة العلماء التي تضم معلمين في المدارس الدينيّة والقضاة والمفتين. وشيخ الإسلام هو مفتي اسطنبول، وهو المرجع الأول الذي يرجع إليه في الفتاوى المتعلقة بالشريعة الإسلاميّة وكلمته في هذا المجال كانت القول الفصل في جميع أرجاء السلطنة. أما جماعة العلماء فهم من العائلات الإسلاميّة العريقة.

وكان شيخ الإسلام أيضاً يرأس النظام القضائي، يعاونه في عمله قضاة من مختلف الدرجات، وأبرزهم: قاضي الروم وقاضي الأناضول. ويطبق القضاة في



جندي عثماني

إصدار أحكامهم الشريعة الإسلاميّة بالنسبة للمسلمين. أما بالنسبة لأهل الذمة، وهم من النصارى واليهود، فكانت تطبق عليهم الشرائع الخاصة بهم.

٢ ـ النظام الإداري:

قسم العثمانيون دولتهم إلى ولايات على رأس كل منها والٍ، وقسموا الولايات إلى سناجق، والسناجق إلى نواحٍ. فالوالي هو رأس السلطة في ولايته يتبع مباشرة للسلطان ومهمته جباية الضرائب وحشد الجيوش أيام الحرب.

أما السنجق فيتولى شؤونه والقرى التابعة له البك، في حين كان الآغا (المختار) يتولى شؤون القرية، وينفذ أوامر البك.

في البداية، كان يتمّ اختيار هذه المناصب على أساس النزاعة والكفاءة، ولكن عندما دبّ الضعف في جسم السلطنة اختلفت المقاييس وأصبحت هذه المناصب تباع بالمال، مما أدى إلى فساد الإدارة في الولايات والسناجق والنواحي.

٣ ــ النظام المالي:

اعتمد العثمانيون الشريعة الإسلاميّة أساساً لنظامهم المالي، فكانوا يستوفون ضريبة الخراج من الجميع والجزية من أهل الذمة.

وكانت جباية الضرائب تتمّ عن طريق التغريم، فيدفع الملتزم قيمة الضريبة نقداً للدولة، وبعد ذلك يسعى إلى تحصيلها من المكلفين.

٤ ــ النظام العسكري:

كان الجيش العثماني يتألف من عدة فرق هي:

ـ فرقة الخيالة أو الفرسان التي كانت تعتمد على الخيول.

ـ فرقة المشاة أو الفرقة الإنكشاريّة التي كانت تشكل القوة الضاربة في الجيش العثماني.

ـ فرقة المدفعية.

ـ الفرقة البحرية التي تسلّمت قيادة الأسطول البحري.

وإلى جانب الجيش النظامي، كان العثمانيون يعتمدون في حروبهم على فرق المرتزقة والفرق المجمعة من أبناء سكان الولايات.

واعتنى العثمانيون بتدريب جيشهم وتنظيمه وتجهيزه بأسلحة حديثة كالمدافع الثقيلة والبارود والبنادق.

ويبقى في هذا المجال الإشارة إلى العوامل الخارجية والداخلية التي أدّت إلى

إضعاف السلطنة العثمانية. إذ أن السلطنة لم تكن لتولي اهتمامها إلى مصالح رعاياها، بل اقتصر هذا الاهتمام على مصالح السلطان ـ الخليفة وموظفي حكومته الكبار؛ في حين أن هؤلاء الحكام كانوا يشترون الوظيفة شراءً فكان من الطبيعي استردادهم ما دفعوه من الرعية بوسائل غير مشروعة أو مشروعة ليسددوا حسابهم مع المركز ـ القسطنطينيّة.

إذا كانت هذه حسابات السلطان وحكامه، فإن الرعيّة كانت مزيجاً من الأعراق والأقوام المتباينة في أساليب العيش والديانة واللغة، ولا يجمع بينها سوى السيطرة العثمانية، بعيداً عن أي ولاء روحي أو وطني أو فكري. أما وضع الأتراك الفلاحين فلم يكن أحسن بكثير، بل كانوا يختلفون في وضعهم ومنزلتهم عن الأتراك العثمانيين الحكام، ويعتبرون كسائر الرعايا من الشعوب المغلوبة على أمرها.

أما الكارثة الكبرى التي شهدتها السلطنة العثمانيّة فقد تمثلت بطريقة انتقال السلطة. إذ أن العادة درجت ومنذ أيام محمد الفاتح أن أياً من أبناء السلطان الذي يحظى بالتاج بعد موت أبيه، كان يعمد إلى قتل جميع أخوته أو حتى أولاده ومعظمهم من أمهات غير أمه؛ وهن من الجواري التي كانت كل واحدة منهن تسعى إلى تسليم ابنها السلطة. ومثالاً على ذلك أن محمد الثالث خليفة مراد الثالث بدأ عهده بقتل تسعة عشر من إخوانه، في حين ذهب سليمان القانوني إلى أبعد من ذلك، إذ أنه وبتحريض من زوجته الروسيّة روكسيلانا، ومحاولة منها ليتولى أحد أبنائها الخلافة، قتل ابنه الأكبر.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت والدة السلطان من مراكز القرار في السلطنة، فضلاً عن دور الإنكشاريّة الذين كانوا في أغلب الأحيان ينصبون السلطان والصدر الأعظم ويخلعونهما إذا شاؤوا.

وعند تسلم أحمد الأوّل أمور السلطنة عند مطلع القرن السابع عشر، ظهرت عادة الحجر على الأخ الأكبر للسلطان في جناح خاص عرف بالقفص، عوضاً عن قتله. ويخضع المحجور لمراقبة شديدة مع نسائه وجواريه... وكانوا يقتلون

أولاده. ولهذه العادة مساوئها، إذ أن الأخ المحجور وعندما يخلف السلطان يكون عديم الخبرة، وفي أغلب الأحيان لم يكن نموه العقلي مكتملاً. وقد ظلّ السلطان عبد الحميد الأوّل في الحجر مدة ثلاثة وأربعين عاماً، وكان ضعيف العقل. أما محمد الخامس الذي خلف أخاه عبد الحميد الثاني في أشدّ فترات تاريخ السلطنة خطورة (١٩٠٩)، فقد كان ناقص العقل بشكل واضح.



أميرة عثمانية

عملت هذه العوامل على ضعف الدولة العثمانيّة، في وقت كانت قد تضافرت فيه عوامل خارجية، حيث بدأت الدول الأوروبيّة: فرنسا، وإنكلترا والنمسا، تفتش عن «مناطق نفوذ» جديدة، في حين كانت أعين روسيا، جارة تركيا على البحر الأسود، ترنو إلى ممتلكات «الرجل المريض» في أوروبا.

إذن، التطوران البارزان تمثّلا باكتشاف طرق بحرية جديدة، جعلت الدول الأوروبيّة وسفنها وتجارتها تستغني عن موانىء المتوسط وخصوصاً السورية واللبنانية

والمصرية، الأمر الذي أثّر سلباً على اقتصاد لبنان، وأبرز السلطنة العثمانيّة كقوّة كبرى على المسرح الدولي. وخضعت المنطقة بأكملها لسيطرتها. وكان كذلك التأثير السلبي أيضاً على لبنان على المستوى السياسي الداخلي والاقتصادي رغم تمتع لبنان باستقلال ذاتي واسع الصلاحيات. وتربع على إمارته المعنيون ابتداء من ١٥١٦ وحتى وفاة الأمير أحمد المعني عام ١٦٩٧، تاريخ انتقال الإمارة من المعنيين إلى أصدقائهم الشهابيين.

الفصل الثاني

لبنان قبل الحكم المعني

إن دراسة الفترة المعنية في تاريخ لبنان تستوجب العودة إلى النظام الذي كان سائداً اجتماعياً وسياسياً، والتعرف إلى توزع القوى السياسيّة والحزبيّة قبل تسلّم المعنيّن السلطة ليسهل فهم التطورات والحروب الداخليّة والخارجيّة التي خاضوها لتثبيت إمارتهم وبالتالي استقلال لبنان.

فقد خضع لبنان منذ مجيء الصليبيين إلى الشرق في أواخر القرن الحادي عشر للنظام الإقطاعي الذي بقي معمولاً به في عهد الأيوبيين والمماليك وحتى إقرار بروتوكول عام ١٨٦١ من جانب الدول الأوروبيّة (روسيا، بروسيا، النمسا، فرنسا، بريطانيا)، والدولة العثمانية.

النظام الإقطاعي

النظام الإقطاعي هو نظام حكومي يسمح للحاكم أن يمنح أو يهب قادته العسكريين حق الإشراف على أراضٍ يحددها لهم تقديراً منه لخدمات أو تضحيات يقدمونها للدولة. وغالباً ما يبقي الإقطاع ملكية الأراضي للدولة وحدها.

طبقات المجتمع اللبناني في ظلّ النظام الإقطاعي:

انقسم المجتمع في ظلّ النظام الإقطاعي إلى طبقتين أساسيتين هما:

١ ـ **الإقطاعيون**: ويمثلون رأس الهرم الاجتماعي ويقسمون إلى ثلاث فئات:

ـ **الأمراء**: ويشكلون رأس السلطة ومن واجباتهم تطبيق القانون، وحفظ النظام وتوطيد الأمن، وجباية الضرائب، وتقديم المساعدات العسكرية للحكام عند الحاجة. ويتشاركون في توزيع الإقطاعات وفي انتقاء الأسرة الحاكمة.

ـ **المقدمون**: وهم أدنى رتبة من الأمراء، لكن واجباتهم شبيهة بواجبات الأمراء.



أمير لبناني

ـ **المشايخ**: «الشيخ» رتبة إقطاعية يتولى حاملها الإشراف على مقاطعة صغيرة. وكانت سلطته تتسع أحياناً لتوازي سلطة الأمير.

ويتمتع رجال الإقطاع بامتيازات يصعب تخطيها، فالإقطاعي لا يقتل ولا يحبس إلا نادراً، ويتمثل عقابه على جريمة ارتكبها بمصادرة أملاكه أو بنفيه إلى خارج البلاد.

٢ ـ **عامة الشعب**: وتشكل الغالبية الساحقة من السكان ومعظمها من الفلاحين الذين كانوا يعيشون وضعاً صعباً يعود للضرائب الباهظة والظروف المعيشيّة القاسيّة، والخضوع التام لسيطرة الإقطاعيين. ولا يملك الفلاحون أرضاً، بل كانوا شركاء بقوّة عملهم للإقطاعيين، حيث كانوا يزرعون الأرض ويستثمرونها بالشراكة مع الإقطاعيين. وكل هذه الأسباب دفعت الفلاحين إلى تنظيم الثورات ضد الإقطاعيين في منتصف القرن التاسع عشر وخصوصاً ثورة طانيوس شاهين عام ١٨٥٨.

الأسر الإقطاعيّة في لبنان

عرف لبنان أسراً إقطاعية عدة انقسمت أيضاً إلى ثلاث فئات هي:

١ ـ الأمراء:

ـ **التنوخيون**: ينتسبون إلى قبيلة عربية أقامت في منطقة الحيرة الواقعة بين النجف والكوفة في العراق. وخلال الفتح العربي أقاموا في شمال سوريا، وتحديداً في حلب، ثم انتقلوا إلى لبنان عام ٧٣٦ بناء على طلب



أميرتان لبنانيتان

الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فاستقروا في عبيه (بلدة في قضاء عاليه)، وسيطروا على المنطقة الواقعة بين صيدا وبيروت، وقوي نفوذهم خلال عهد المماليك. امتازوا بالمرونة السياسيّة، فقد سايروا الصليبيين والمماليك، واعتنقوا الدرزيّة. وضعف نفوذهم في العهد العثماني، وإليهم ينتسب البحتريون والأرسلانيون وآل علم الدين.

ـ **آل سيفا**: وهم من أصل كردي، ينتسبون إلى المقدم جمال الدين الملقب

بسيفا. طلب المماليك منهم حماية خليج عكار، والممرات المؤدية إلى شمال سوريا، وجعلوا من بلدة حلبا مقرّاً لهم وعيّنوا ولاة على مدينة طرابلس. وبلغوا ذروة قوتهم في عهد يوسف سيفا (١٥٨٩ ـ ١٦٢٤) الذي اشتهر بالثراء والكرم والعطف على الشعراء. وقد قضى على محمد العساف في المسيلحة شمال البترون عام ١٥٩٠، فامتدّ نفوذه إلى أنطاكية شمالاً وإلى بيروت جنوباً. واصطدم بالمعنيين ووقعت بين الأسرتين حروب طويلة انتهت بنصر المعنيين والقضاء على أمراء آل سيفا.

ـ آل حرفوش: وهم من أسر الأمراء المهمة، وينتسبون إلى الأمير حرفوش الخزاعي القحطاني. قدموا مع الفتح العربي خلال ولاية الخليفة عمر بن الخطاب إلى بعلبك وتزعموا الشيعة من القرن الرابع عشر. حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفي العهد المعني ولاّهم الأمير فخر الدين الثاني على بعلبك والبقاع، ولكن صداقتهم للمعنيين



لبناني بلبّادته وثيابه التقليدية

انقلبت إلى عداوة وحروب.

ـ **آل العساف**: وهم من التركمان، أقامهم المماليك في كسروان وجعلوا غزير عاصمة لهم. كافأهم السلطان سليم لمساعدتهم إياه في مرج دابق (١٥١٦) وأضاف إليهم مقاطعة جبيل. اشتهر منهم الأمير منصور العساف الذي استطاع أن يبسط نفوذه من بيروت جنوباً حتى عرقا شمالاً، ودفع النظام الذي ساد إقطاعيته بعدد من العائلات الشيعيّة والمارونيّة إلى الوفود والإقامة فيها.

ـ **المعنيون والشهابيون**: هم من العرب، قدموا إلى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربيّة، ومنها انتقل المعنيون إلى الشوف في لبنان، والشهابيون إلى وادي التيم.

٢ ـ **المقدمون**: ومن أشهرهم: أبو اللمع، بنو الصواف، بنو مزهر، آل علي الصغير، آل الشاعر، ومقدمو المسيحيين في بشري والعاقورة وجاج في منطقة جبيل، وأيطو في شمال لبنان.

ـ **أبو اللمع**: قدموا إلى لبنان من منطقة حلب في شمال سوريا، وتعود تسمية أبي اللمع إلى جدهم أبي اللمع الذي أقام في كفرسلوان وتوفي عام ١٦٥٢ ودفن في المتين. كانوا مقدَّمين حتى معركة عين دارا عام ١٧١١، فأصبحوا بعدها أمراء. وكانوا دروزاً ثم تنصّروا.

ـ **آل الصغير**: يعود تاريخ آل علي الصغير إلى جدهم محمد بن خزاع الوائلي، الذي قدم من بادية نجد في عهد الأمويين وأقام في بلاد بشارة (جبل عامل في جنوب لبنان). أما تسمية علي الصغير فتعود إلى فارس من الوائليين تمكن من استعادة الحكم من بني شكر، وعرفت سلالته بهذا الاسم وتزعمت الشيعة في المنطقة المذكورة، وينتسب إليها عدد من العائلات اللبنانيّة الجنوبيّة ومنهم آل الأسعد على سبيل المثال.

٣ ـ **المشايخ**: من أشهر أسر المشايخ: آل الخازن، وحبيش وحمادة ونكد وتلحوق وجنبلاط.

ـ **آل الخازن**: ينتسبون إلى سركيس الخازن الذي رحل عام ١٥٤٥ من جاج إلى الفتوح حيث سكن في البوار، لينتقل منها إلى كسروان ويستوطن في بلونة. كانت علاقتهم جيدة بالمعنيين، واختبأ عندهم ولدا الأمير قرقماز المعني حيث كافأهم الأمير فخر الدين المعني الثاني. برز بينهم أبو نوفل الخازن الذي أنعم عليه البابا «اسكندر السابع» بوظيفة فارس، واختاره ملك فرنسا ليكون قنصلاً لبلاده في بيروت.

ـ **آل عماد**: جدهم عماد، رحل من العمادية قرب الموصل في العراق إلى جبل لبنان. أقاموا في منطقة العرقوب ثم توزعوا في منطقة الشوف، وخصوصاً في

... ولم يكن الحكام الشهابيون والمعنيون هم الذين أوجدوا كل ألقاب الشرف. فآل أرسلان عرفوا بلقبهم، وكذلك آل علم الدين. ونال آل عماد، وآل القاضي، وآل الخازن، وسواهم لقب المشيخة قبلما خلف الشهابيون المعنيين على الإمارة في ١٦٩٧. على أن كثيراً من الأسر التي حملت ألقاب شرف في عهد الإمارة الشهابية، إنما نالتها من الأمراء الشهابيين الحكام، بعد معركة عين دارا في عام ١٧١١. ومن هذه الأسر آل تلحوق، وعبد الملك، وعيد، وفي عام ١٧١٢ آل جنبلاط؛ الذين ورثوا آل القاضي، الأسرة العريقة المنقرضة.

ويمكن اختصار هرم السلطة كما يأتي: في أعلى الهرم آل شهاب، ثم آل أبي اللمع، ثم آل أرسلان، ويتبع ذلك مشايخ الشيعة من آل حمادة، والمقدمين الدروز من آل مزهر، ويلي هؤلاء على التوالي في المرتبة المشايخ: آل جنبلاط، وآل عماد، وآل أبي نكد. ثم يتبعهم آل تلحوق، وآل الخازن، وآل عيد، وآل حبيش، وكانوا كلهم على قدم المساواة. ويأتي في رتبة أدنى آل الخوري، وآل الدحداح، وآل أبي صعب، وآل كرم، وآل عازار.

التحوّل السياسي في تاريخ لبنان الحديث إيليا حريق

مزرعة الشوف والباروك.

ــ **آل حبيش**: ينتسبون إلى الشيخ حبيش. بعد مقتل سلطان المماليك قانصوه الغوري على يد السلطان سليم عام ١٥١٦، قدم حبيش إلى غزير وأقام فيها.

ــ **آل حمادة**: ينتسبون إلى حمادة العجمي، الذي قدم إلى لبنان من بلاد فارس، وأقام في قهمز في منطقة جبيل، لتتوزع عشيرته بعدها بين جبة المنيطرة والهرمل، وحكمت مناطق بشرّي والضنية، وبلاد البترون.

ــ **آل نكد**: وهم من قبيلة عرب الحجاز. عام ١١٢٠، أتوا إلى لبنان مع المعنيين وبقوا مخلصين لهم وأقاموا في الشوف.

ــ **بنو تلحوق**: خرجوا من الجزيرة العربية أثناء الفتح العربي وأتوا مع الأمير معين إلى الشام، ثم إلى حوران وبعدها إلى وادي التيم، وأقاموا في الشوف حيث انضموا إلى الحزب القيسي.

ــ **آل جنبلاط**: ويعودون بنسبهم إلى جان بولاد الكردي الأيوبي الذي حضر عام ١٦٣٠ من حلب إلى بيروت لما بينه وبين المعنيين من علاقة صداقة.

التوزيع الطائفي

فضلاً عن التنوع الطبقي في لبنان وتعدد أسره الإقطاعية، فقد عرف توزيعاً من نوع آخر يقوم على الأساس الطائفي حيث سيطر الموارنة على معظم مناطقه الشمالية، فيما انتشر الأرثوذكس في الكورة وبعض المدن الساحلية.

أما الموحدون الدروز فقد أقاموا وما زالوا حتى يومنا هذا في الشوف والمتن، في حين أقام الشيعة في جرود كسروان وجبيل والبترون ومنطقة بعلبك الهرمل، واحتفظ المسلمون السنّة بالسيطرة على معظم الساحل اللبناني.

هذا التمايز الطبقي ـ العائلي الطائفي لم يمنع اللبنانيّين من العيش بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الحكام اللبنانيون، وخصوصاً المعنيين، الأمر الذي نراه بالتفصيل في الصفحات التالية.

وإذا كان هذا التمايز برز في داخل لبنان والإمارة اللبنانية، فإن القبائل العربية التي لجأت إلى لبنان حملت معها انقساماً آخر أساسه الحزبية. فقد انقسمت هذه القبائل بين القيسيين الذين يعودون بأصلهم إلى شمال الجزيرة العربية ومنهم المعنيون والشهابيون، واليمنيون الذين قدموا من جنوب الجزيرة ومنهم آل علم الدين وآل سيفا.

ويعود الصراع القيسي - اليمني إلى العصر الجاهلي، لكنه اختفى مرحلياً مع ظهور الإسلام حيث شاركوا جميعهم بعد دخولهم إلى الدين الجديد في عمليات الفتح والتوسع، لكنه لم يختف من نفوسهم، وظلّ يتجدّد من وقت لآخر في كل مكان حلّوا به.

ولا بد من الإشارة إلى أنه لم يكن لأي من الحزبين منهاج فلسفي، بل كان على السلطة والزعامة. واستمر في لبنان إلى أن انتصر القيسيون على اليمنيين في معركة عين دارا عام ١٧١١، لتظهر بعد ذلك حزبية جديدة من نوع جديد عرفت باليزبكية والجنبلاطية.

إذن، شهد لبنان في بدايات القرن السادس عشر تمايزاً سياسيّاً تمثّل بأحزاب تتنازع على السلطة، وبأسر إقطاعية متعددة هاجسها أيضاً السلطة، وتوسيع إماراتها، وبناء تحالفات بين بعضها لتحقيق غاياتها. وأورثوا الحكم فيما بعد لأقاربهم في السياسة والتزاوج، الشهابيين.

الفصل الثالث

المعنيون في الإمارة قبل فخر الدين الثاني

من هم المعنيون؟

اتفق المؤرخون على أن المعنيين ينتسبون إلى الأمير معن الأيوبي الملقب بأبي ربيعة، لكنهم اختلفوا في تحديد أصل المعنيين. فالبعض قال إنهم من الأيوبيين الأكراد، وآخرون أشاروا إلى أنهم عرب من بلاد نجد. لكن اسم معن يظهر للمرة الأولى في التاريخ عام ١١٢٠ لما أمره والي دمشق طغتكين بالتوجه مع عشيرته إلى البقاع ومنها إلى جبال لبنان التي تشرف على الساحل ليتخذها حصناً لمواجهة الإفرنج (أي الصليبيين) الذين حلّوا في الساحل المذكور.

وفي العام نفسه انتقل المعنيون إلى الشوف «الذي كان قفراً من السكان»، حسب قول محمد المحبي في الجزء العاشر من كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر». وهناك تخلى المعنيون عن حياتهم الرحلية ونزلوا في «صحراء بعقلين» ليبنوا مدينة بعقلين ويجعلوها مقرّاً لهم، ويتصلوا منها بالأسر الأخرى ويقيموا تعاوناً مع التنوخيون الذين حكموا مع النجديين لبنان الأوسط ولبنان الجنوبي.

وبعد نصف قرن من الزمن هجر الشهابيون موطنهم في حوران ونزلوا في لبنان الجنوبي في وادي التيم. وقامت بين الأسرتين، المعنيّة والشهابيّة، علاقة جيدة بسبب التزاوج، واعتنق المعنيون الديانة الدرزية فيما اعتنق الشهابيون ـ باستثناء قسم نهم ظلّوا مسلمين ـ المسيحية حسب العقيدة المارونية.

كيف تسلموا الإمارة؟

رأينا أن وفداً من الأمراء اللبنانيين قدّم تهانيه إلى السلطان سليم بنصره على المماليك في مرج دابق وألقى الأمير فخر الدين المعني الأوّل خطبة بين يديه، أعجب بها فكافأه على مواقفه وثبته في إمارة الشوف وجعل الحكم وراثياً في أسرته وقدّمه على سائر اللبنانيين وجعله حكماً بينهم.

الأمير فخر الدين المعني الأول

اتبع الأمير فخر الدين المعني الأوّل (١٥١٦ ـ ١٥٤٤) سياسة واضحة أساسها نبذ التعصب بكافة أشكاله وخصوصاً الديني، ونشر مبادىء التعاون والعدل والمحبة بين الناس. وأدّت هذه السياسة المتسامحة إلى وفود جماعات من المسيحيين والمسلمين الشيعة إلى لبنان والإقامة فيه.

أما الجانب الثاني من سياسة فخر الدين المعني الأوّل فقد قام على عقد تحالفات عديدة مع الأسر الإقطاعيّة اللبنانيّة لمواجهة الأخطار التي تهددهم جميعاً، فتقرب من التنوخيين والشهابيين وغيرهم.

وحرص الأمير فخر الدين المعني الأوّل على الحفاظ على علاقات جيدة مع الولاة العثمانيين وخصوصاً ولاة دمشق. ولكن هذا الحرص لم يمنعهم من زيادة الضرائب عليه من حين إلى آخر والسماح لأحاديث الوشاة. ولما احتج الأمير على ذلك، استغل الفرصة أخصامه اليمنيّون وادعوا أن فخر الدين يناوىء العثمانيين وسياستهم فرأى والي دمشق أن الفرصة سنحت للتخلص من الأمير فخر الدين؛ فاستدعاه إلى دمشق ودبر أمر مقتله في ظروف غامضة عام ١٥٤٤، فخلفه في الحكم ابنه قرقماز.

الأمير قرقماز

سار الأمير قرقماز (١٥٤٤ ـ ١٥٨٥) على خطى أبيه الأمير فخر الدين المعني الأوّل، فعمل على توطيد الأمن في الداخل وإنشاء علاقات طيبة مع الدولة العثمانية. لكن أعدائه استغلوا حادثة جون عكّار التي كانت السبب في نهاية الأمير.

حادثة جون عكار

أسفرت معركة ليبانت عند مدخل البحر الأدرياتيكي عام ١٥٧١، عن هزيمة الأسطول العثماني أمام الأسطول النمساوي. فاضطر العثمانيون بعدها إلى نقل ضرائبهم من الولايات عن طريق البر.

وعام ١٥٨٤، كانت قافلة عثمانية تنقل الضريبة من مصر إلى الأستانة، فتعرضت لعملية سطو قامت بها مجموعة من اللصوص. فاتّهم العثمانيون آل سيفا بالعملية. لكن هؤلاء تمكنوا من إقناع العثمانيين بأن أنصار الأمير قرقماز تعرضوا للقافلة، وكان العثمانيون بدورهم يرغبون في إذلال أمراء الجبل. فتوفرت الظروف لـ «تأديب» الأمير المعني. وطلب السلطان من والي مصر تجريد حملة عسكرية على الإمارة المعنية.

حملة إبراهيم باشا ونهاية قرقماز

جهز إبراهيم باشا حملة عسكرية واتجه بها نحو لبنان فجاء برجاله أولاً إلى البقاع ثم هاجم الشوف، فتصدى له الأمير قرقماز قدر استطاعته. لكن قوات الوالي هزمت قوات الأمير قرقماز، وقتلت الكثيرين من أنصاره، ودمرت القرى وهدمت البيوت. عند ذلك، هرب الأمير المعني واختبأ في مغارة شقيف تيرون (قلعة نيحا قرب جزين)، لكن إبراهيم باشا لحق به وحاصره فيها؛ ثم أشعل حطباً أخضراً على مدخلها، فمات قرقماز اختناقاً عام ١٥٨٥، تاركاً ولديه فخر الدين ويونس وزوجته السيدة نسب التي انتقلت مع ولديها إلى كسروان واختبأت عند آل الخازن

(وهم من الحزب القيسي) في بلونة. فساعد ذلك على تعميق علاقة آل الخازن بالمعنيين. وبعد قرقماز تسلم شقيق زوجته سيف الدين التنوخي الإمارة ليسلمها عام ١٥٩٠ إلى ابن أخته الأمير فخر الدين المعني الثاني.

ماذا حدث لفخر الدين بين عامي ١٥٨٥ و ١٥٩١؟

يقول الدكتور كمال الصليبي، استناداً إلى رواية البطريرك الدويهي، وكلام الأمير حيدر الشهابي، وكذلك الشيخ شيبان الخازن والشيخ طنوس الشدياق:

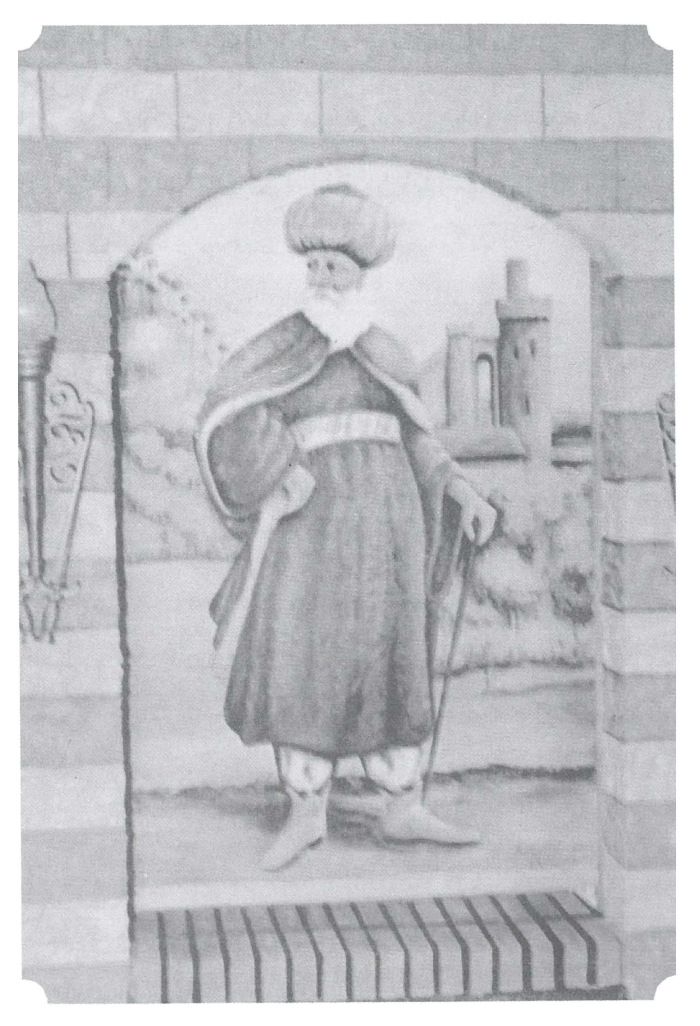
١ ـ إن ما قيل عن صحّة هذه القصة واختباء فخر الدين في كسروان غير ثابت. لأنه لا يوجد أية أدلة ثابتة تشير إلى علاقة قامت بين الموارنة وآل معن أو بين آل الخازن والأمير فخر الدين قبل ١٥٩٨، عندما انتصر فخر الدين على يوسف سيفا ودخل كسروان للمرة الأولى.

٢ ـ الحاج كيوان: شخصيته التاريخية بعيدة كل البعد عن شخصيته الأسطورية الظاهرة في تاريخ الشدياق وتاريخ المعلوف. لم يكن الحاج كيوان مارونيا، ولم يدخل في خدمة آل معن في عهد قرقماز ولم تقم بينه وبين فخر الدين أية علاقة قبل ١٦٠٧، وهو العام الذي ثار فيه علي جانبولاد صاحب حلب على العثمانيين. وهنا يستشهد الصليبي بتاريخ المجي الدمشقي الذي قال: «كيوان بن عبد الله أحد أكبر أحفاد الشام. فنزع إلى التعدي وأخذ الناس بالتهمة حتى وقع بينه وبين الجند فتنة عظيمة لكنه عاد واصطلح معهم. وعندما وقعت الواقعة بين جانبولاد والأمير يوسف بن سيفا، أتى كيوان إلى ابن معن وحمله على معاونة ابن جانبولاد»...

يتابع استشهاده بهذا المؤرخ ليوضح كيفية تأصل العلاقة، وكيف قتل فخر الدين كيوان. إلاّ أن ما يهمنا هو كيفية تعارف كيوان بفخر الدين. ولدحض القول إن فخر الدين تربى على يدي الحاج كيوان كما ورد عند الشدياق، والمعلوف (يقول إن كيوان ماروني).

الفصل الرابع

الأمير فخر الدين المعني الثاني
(١٥٧٢ ـ ١٦٣٥)



من هو فخر الدين؟

نشأته

ولد الأمير فخر الدين المعني الثاني عام ١٥٧٢ في بعقلين من الأمير قرقماز والسيدة نسب التنوخية. توفي والد الأمير قرقماز، كما مرّ معنا، عام ١٥٨٤ في حادثة جون عكار وهو في الثانية عشرة من العمر، فخبّأته والدته هو وشقيقه يونس عند آل الخازن في كسروان. وعندما هدأت الأحوال عادا إلى عبيه، حيث أقاما عند خالهما الأمير سيف الدين التنوخي يتمرسان على الحكم، حتى رضي العثمانيون على المعنيّين، وبلغ الأمير فخر الدين سن الرشد فتسلم الإمارة من خاله عام ١٥٩٠.

شخصيته

قيل الكثير في الأمير فخر الدين، وأعطاه معاصروه أوصافاً عديدة تركز في مجملها على شجاعته وذكائه ورجاحة عقله وحنكته السياسيّة، فضلاً عن حبه للعلم والعدل وتركيز جهوده من أجل بناء لبنان وازدهاره واستقلاله. لكن تميّزت عن هذه الآراء قلة حاولت أذية الأمير؛ إلا أن الحقائق دحضت أقوالها، ولم تؤثر على الأمير وسياسته، فبقي أميراً.

أما أوصاف الأمير فقد ذكرها معاصره ومؤرخه على الشكل التالي: «صاحب هذه السيرة سليم الصادر، صافي السريرة، متواضع، بشوش. وهو في الحلية الطعان عبوس هيوش، حليم عند الغضب ما سمعت عنه الكلمة الفاحشة قط. يصغي إلى المظلوم فينصفه من ظلمه ويرثي لحاله فيكون خير راحم.

ربع القامة، حنطي اللون، لطيف الهامة، مهاب، جليل، ذو عطاء جليل

جزيل يباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط أحوالها ويتقن أمورها بقوة حدسه، قويّ العزم، شديد الحزم، حسن التدبير. وكما يعطف على الغني يحنو على الفقير، مطيع لله وللسلطان يؤدي ما عليه من الأموال في كل آن.

ووصفه الأب روجيه طبيبه الخاص بقوله: «كان حاد البصر والفهم شجاعاً لا يغلب، ميالاً إلى العلم، متضلعاً في معرفة النجوم والفلسفة التي أخذها عن والدته. منكباً على درس الكيمياء. وكان يهوى تشييد القصور الفخمة، والجنائن الغناء. كلف مصوراً فرنساوياً أن يرسم له الحشائش والنباتات المختلفة بأصولها وفروعها وأوراقها. فرسم له منها ألف وخمسمائة بألوانها الطبيعية الزاهية. وقد كافأه بعطاء جزيل».

أما يوحنا سانتي عضو البعثة التي أوفدها الغراندوق قوزما الثاني إلى لبنان حين كان الأمير ضيفاً عنده، فقد ترك وصفاً مختلفاً عما سبق، إذ قال في تقريره: «يعتبر الجميع فخر الدين أميراً ذا بأس وإقدام، للحروب التي أثارها على السلطان. ومع أنه ظالم، يسلب رعاياه ما جمعوه بعناء، تراه محبوباً لأنه يوفر لجنوده الفرص للكسب والسلب، وهو مهاب، لشدة وطأته على المجرمين، ميال إلى الحرب الطعان، لكنه بخيل، قاسٍ، دنيء... قامته متوسطة نازعة إلى القصر، أسمر البشرة، أسود الشعر، قوي العضل، صبور على التعب والشدائد، وما زال في ريعان الكهولة».

إلا أن رئيس البعثة نفسها كارلو ماشنجي لا يتفق مع عضو بعثته سانتي ويعطي وصفاً مغايراً عن الأمير بقوله: «إنه محبوب جداً من رعاياه لعطفه عليهم وملاطفته لهم. وهو مهاب من أعدائه لأنهم خبروا بأسه وحنكته في مواقع كثيرة».

وحتى سانتي نفسه يعود ليكذب قوله السابق وفي تقريره ذاته، إذ يؤكد أن الأمير: «يتحمل نفقات باهظة في بسط سماطه كل صباح للعابر والحاضر، يجلس إليه كل من شاء.. حتى إذا نهض الفوج تلاه الآخر إلى أن ينتهي الجميع من الأكل. وهو يتصدر هذه الموائد الشعبية بنفسه. وهذه المجاملة تحمل الرعيّة على محبته».

سياسة فخر الدين الداخلية

كان لفخر الدين أهداف عديدة تبدأ بإنشاء دولة تسير في ركب الحضارة، ويستقل بها عن العثمانيين ويقطع علاقاته معهم، بالإضافة إلى الانتقام من الذين تسببوا في مقتل والده الأمير قرقماز، وخصوصاً آل سيفا وبني فريخ.

ولتحقيق أهدافه عمل الأمير فخر الدين وفق الأسس التالية:

ـ جمع الحزب القيسي من حوله خصوصاً الشهابيين وآل حرفوش وربط أمراءه بحلف قوي ضد الحزب اليمني.

ـ كسب ودّ العثمانيين واستمالة بعض الأسر الإقطاعيّة عن طريق الهدايا والمال.

ـ محاربة خصومه اليمنيين في الداخل.

ـ مصاهرة عائلات حليفة له كآل شهاب وآل أرسلان وبعض الأسر اليمنية التي كان على عداء معها بهدف كسب بعضها إلى جانبه.

ـ تأسيس جيش قويّ وتجهيزه بالرجال والعتاد.

لكن، ومع كل هذه الاستعدادات، لم يستطيع الأمير محاربة أعدائه دفعة واحدة، إذ إنه كان محاطاً بعدوين لدودين هما: منصور ابن فريخ في البقاع، ويوسف سيفا في الشمال. وللتأكيد على قوة الأخير، قال قنصل البندقية في حلب إنه «كان في وسع ابن سيفا أن يجند اثني عشر ألفاً من حملة البنادق المدربين على صنوف القتال»، فضلاً عن قوى حليفه ابن فريخ. ولذا عرف الأمير أن الحرب معهما سويّة يعني الوقوع بين نارين: سيفا شمالاً والفريخ شرقاً، وهذا ما دفعه إلى اتباع سياسة الاستفراد بكل منهما على حدة. ولذلك قرّر التخلص من ابن فريخ

ليحمي ظهره، وتوصل إلى مأربه هذا بدون معارك وعلى أهون السبل، فكيف تخلص من ابن فريخ الذي يقول عنه المحبي: «وكان الأمير منصور المعروف بابن فريخ قد عظم أمره، فولي حكومة البقاع. ثم أعطي حكومة نابلس، وانحاز إليه جماعة من جند دمشق. واشتهر وأخاف الدروز؛ ثم شنّ الغارات عليهم. وكان هو السبب في أخذ إبراهيم باشا إليهم وقد جاء من نيابة مصر... ثم جمع بين حكومة نابلس وعجلون... وعمر عمارات عظيمة في البقاع بقرية قب الياس، واستعمل فيها العملة بالسخرة وشرع في عمارة عظيمة خارج دمشق. وكان مبغضاً للرافض والدروز...».

التوسّع في الداخل

القضاء على ابن فريخ

استغل الأمير فخر الدين المعني الثاني مرور صديقه والي دمشق مراد باشا القبوجي (الذي أصبح فيما بعد صدراً أعظم) عام ١٥٩٢ في مدينة صيدا، فاستقبله الأمير وقدَّم له الهدايا والمال وشكا له ظلم منصور بن الفريخ طالباً منه أن يخلِّصه منه.

وعند عودة الوالي إلى دمشق لبّى رغبة الأمير، فاستدعى ابن فريخ إلى دمشق ودبر مقتله، وعلى الأغلب شنقه في كانون الثاني عام ١٩٥٣.

عندئذٍ سارع الأمير فخر الدين، وبالتعاون مع حلفائه آل حرفوش، إلى شنّ هجوم كاسح على البقاع فقضى على آل فريخ وضمّ منطقتهم البقاع إلى إمارته وولى عليه حلفائه الحرافشة.

وطلب فخر الدين من مراد باشا القبوجي، فضلاً عن التّخلص من ابن فريخ، استعادة سنجق صيدا الذي يتبعه إقليم جبل عامل وبلاد بشارة، ومدينة بيروت التي كانت آنذاك بيد ابن سيفا فأعطاه إياهما، ليتخذ الأمير فخر الدين بعدها من صيدا مقرّاً ثانياً له، ثم ضمّ سنجق صفد في فلسطين.

الصراع مع ابن سيفا

بعد القضاء على ابن فريخ، لم يتبق لدى الأمير من الخصوم الداخليين سوى يوسف سيفا فانصرف لمواجهته والانتقام منه لمقتل أبيه الأمير قرقماز. ودارت بينهما معارك عدة هي:

١ ــ معركة نهر الكلب:

استغل يوسف سيفا فرصة عزل والي دمشق مراد باشا القبوجي من منصبه لاستعادة بيروت التي ضمت إلى الشرق عام ١٥٩٨، فما كان من فخر الدين إلا أن تصدّى له عند نهر الكلب ودارت بين الطرفين معركة عنيفة، انتصر فيها الأمير على خصمه وتمكن من احتلال كسروان والفتوح اللتين كانتا مع المعنيين في عهد الأمير قرقماز، ثم فقدوهما بعد حادثة جون عكار.

لكن الأمير ما لبث أن أعاد كسروان والفتوح إلى ابن سيفا. وتختلف المصادر في سبب ذلك، إذ يقول البعض أن ابن سيفا تظاهر بالمودة، في حين يذكر آخرون أن الأمير فعل ذلك بطلب من والي دمشق.

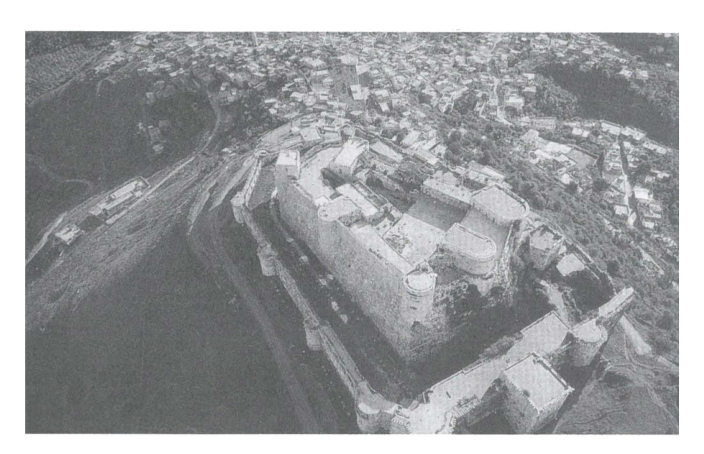
إلا أن الأرجح هو أن بعض الأسر الإقطاعيّة، وخصوصاً الأرسلانيين، قاموا بمساعي للصلح بين الطرفين، أدّت إلى موافقة الأمير على التخلي عن كسروان والفتوح وبيروت لابن سيفا، شرط أن يخلد الأخير إلى السكينة، ويكفّ عن محاربة الأمير وحلفائه.

٢ ــ معركة جونيه (١٦٠٥):

فترة السلام بين الأمير فخر الدين وابن سيفا لم تكن طويلة، إذ عمد ابن سيفا إلى مهاجمة حلفاء الأمير من آل حرفوش في بعلبك ومقدمي آل جاج، فأحرق بيوتهم ونهب قراهم وأرزاقهم وأموالهم.

وهبّ الأمير لنجدة حلفائه وتصدى لقوات ابن سيفا عند جونيه سنة ١٦٠٥ وانتصر عليها. عقب ذلك انتزع فخر الدين بيروت وكسروان والفتوح وضمّها نهائياً إلى إمارته بموافقه والي دمشق على ذلك، بفضل ما قدّم له من الهدايا الكثيرة والأموال.

التحالف مع علي باشا جانبولاد



حصن الأكراد

من هو علي باشا جانبولاد؟

يعود نسب آل جانبولاد الذي ينتمي إليه علي باشا جانبولاد إلى الأيوبيين الأكراد، الذين أصبحوا حكاماً على ولاية حلب عام ١٥٧٢، وانتقلوا إلى لبنان سنة ١٦٣٠ بعد خلافاتهم مع الدولة العثمانيّة وأقاموا في الشوف ولعبوا دوراً مهماً في السياسة اللبنانيّة، ولم يزالوا حتى يومنا هذا.

أسباب التحالف بين الأمير فخر الدين وعلي جانبولاد

ـ خوف والي دمشق الجديد أحمد حافظ باشا الذي عيّن مكان مراد باشا القبوجي، من تعاظم قوّة الأمير ونزعته الاستقلاليّة. لذلك أظهر العداء للأمير.

ـ رغبة ابن سيفا وإصراره على الانتقام من هزائمه أمام الأمير فخر الدين، وخصوصاً في معركتي نهر الكلب وجونيه، فضلاً عن تحالف ابن سيفا ووالي دمشق لمواجهة الأمير.

لهذه الأسباب وجد فخر الدين نفسه مضطراً للبحث عن حليف يساعده على التصدي للحلف المعادي له. فكان ذلك الحليف علي باشا جانبولاد والي حلب الذي كان هو الآخر يرغب بالتعاون مع حليف يساعده في مواجهة العثمانيين وإنجاح حركته الاستقلاليّة.

وهناك روايتان للتحالف بين فخر الدين وجانبولاد يكملان إلى حدّ ما بعضهما البعض، ويعبران في الوقت نفسه عن رغبة الحليفين الجديدين من جهة ورغبة والي دمشق وابن سيفا من جهة ثانية في حصول التحالف.

وتقول الرواية الأولى: إن والي دمشق أحمد حافظ باشا طمع بوادي التيم فصدّه عنه الشهابيون بمساعدة المعنيين؛ فتحالف الوالي مع آل سيفا، مما دفع الأمير فخر الدين إلى التقرب من آل جانبولاد في حلب، وعلى رأسهم علي باشا جانبولاد. وعندها راح والي دمشق وابن سيفا يكاتبان الدولة متهمين جانبولاد وفخر الدين بالتمرد.

أما الرواية الثانية فتقول أن علي باشا جانبولاد تسلم ولاية حلب بعد مقتل عمه حسن باشا ظلماً على يد الصدر الأعظم سنان باشا. واغتنم فرصة انشغال العثمانيين في الحرب مع الأوروبيين وفي بلاد فارس فأعلن العصيان عليها. عندها استعانت الدولة العثمانية بابن سيفا الذي أبدى استعداده للقضاء على علي باشا جانبولاد مقابل توسيع رقعة نفوذه. وتوجه لقتال جانبولاد، لكنه هزم في معركة عراد قرب حماه عام ١٦٠٦. ومع ذلك استنجد جانبولاد بالأمير فخر الدين.

إذن، الروايتان تقودان إلى الحرب ولا من فوارق تذكر.

فقد هبّ الأمير فخر الدين لنجدة حليفه علي باشا جانبولاد مع آل شهاب وآل حرفوش واحتلوا طرابلس، وقطعوا طريق العودة على ابن سيفا بعد هزيمته

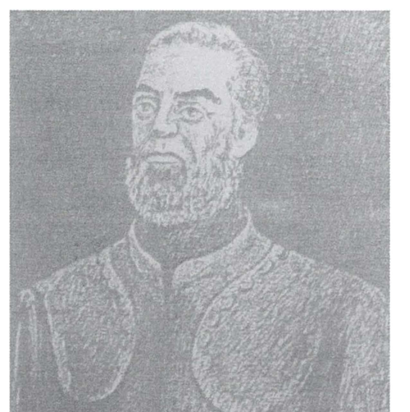
بالقرب من حماه. فأبحر ابن سيفا إلى قبرص ومنها إلى غزة حيث زوده حاكمها أحمد طربيه بعدد من الرجال عاد بهم إلى دمشق وتقوّى بجندها. فلحقه علي باشا جانبولاد والأمير فخر الدين إلى دمشق، وحاصراه فيها ليهرب منها إلى حصن الأكراد. ولحق به جانبولاد، وحاصره هناك أيضاً؛ لكنه اضطر إلى عقد الصلح معه على مبلغ من المال لينصرف إلى قتال العثمانيين. أما فخر الدين فقد وافق على عقد الصلح مع ابن سيفا وتزوج من ابنة شقيقه.

ودفعت هزيمة والي دمشق وابن سيفا في عراد بالعثمانيين إلى تجريد حملة عسكرية تمكنت من القضاء على علي باشا جانبولاد واحتلال حلب وإخماد الحركة الاستقلاليّة فيها.

أما فخر الدين الذي كان يخشى انتقام الدولة العثمانيّة لمناصرته علي باشا جانبولاد، فقد سارع إلى إظهار خضوعه للدولة بإرسال الهدايا والأموال مع ابنه علي ومستشاره الحاج كيوان لوالي الصدر الأعظم مراد باشا، فسكت عنه وجدد له الاعتراف بحكم الإمارة، وعفا عنه بعد إقناعه بأن التحالف مع جانبولاد لم يكن موجّهاً ضد العثمانيين بل ضد ابن سيفا.

التحالفات مع توسكانة

بعد خسارة الأمير فخر الدين لحليفه علي باشا جانبولاد عمد إلى التعويض بإقامة تحالفات خارجية تمثّلت بتوقيع معاهدة مع دوق توسكانة فرديناند عام ١٦٠٨، كانت ضرورية للطرفين، إذ كان لكل منهما أسبابه لعقدها.



فردیناند الأول دوق توسكانة

الأسباب الخاصة بفخر الدين

ـ حاجة فخر الدين إلى حليف قويّ يمكّنه من الصمود أمام أحقاد والي دمشق أحمد حافظ باشا وخصوصاً بعد خسارته حليفه علي باشا جانبولاد.

ـ رغبة الأمير فخر الدين في بناء دولة قويّة موسّعة مستقلة عن العثمانيين.

الأسباب الخاصة بالتوسكانيين

ـ رغبة الأوروبيين عموماً والتوسكانيين خصوصاً في استعادة نفوذهم في الشرق بعد طردهم منه خلال الحروب الصليبيّة.

ـ المنافسة بين الإمارات الإيطالية وخصوصاً توسكانة والبندقيّة على إيجاد

أسواق تجارية في بلاد الشرق.

ـ رغبة دوق توسكانة في السيطرة على الأماكن المقدسة، الأمر الذي جعله يتطلع إلى الإمارة المعنية الواقعة على مقربة منها.

بنود المعاهدة مع دوق توسكانة

عام ١٦٠٨ جرب محادثات في صيدا بين سفير توسكانة والأمير فخر الدين، توصل فيها الطرفان إلى اتفاق تعهدت توسكانة بموجبه بما يلي:

ـ أن تزود الأمير فخر الدين بخبراء في صب المدافع.

ـ أن تطلق سراح الرهائن الفلورنسيين (فلورنسة كانت عاصمة لتوسكانة) المعتقلين لدى العثمانيين، لأنهم كانوا يعرفون أسرار قلاع فخر الدين وخصوصاً قلعتي الشقيف وصيدا.

ـ أن تحصل توسكانة على كتاب من البابا يأمر به مسيحيّي الشرق بوضع إمكاناتهم بتصرف الأمير والالتفاف حوله.

ـ أن يصدر دوق توسكانة أوامره إلى السفن التوسكانية بالرسو في ميناء صيدا.

ـ أن يزود دوق توسكانة فخر الدين بجواز سفر يسمح له بالذهاب إلى توسكانة ومركبين أو ثلاثة لتبادل الرسائل بينه وبين الأمير وأن يهديه أربعة هواوين.

وبعد توقيع المعاهدة، بدأ فرديناند دوق توسكانة في تطبيق بنودها فوراً. وعندما توفي سنة ١٦٠٨ خلفه ابنه قوزما الثاني فسار على سياسة أبيه تجاه فخر الدين فأغدق عليه بالأسلحة، وعجَّ ميناء صيدا بالسفن التجارية التوسكانية.

ورغم إحاطة المعاهدة بالسريّة التامّة، تمكن العثمانيون عبر جواسيسهم من الاطلاع عليها؛ إذ أنهم ـ أي الجواسيس ـ كانوا يراقبون باهتمام تردد السفن التوسكانية بكثرة إلى ميناء صيدا، وساعدهم في ذلك التجار الأوروبيون الذين كانوا

ينافسون التوسكانيين في كشف بنود المعاهدة التي توضح بنودها أن دوق توسكانة كان يسعى بأي ثمن إلى إيجاد موطىء قدم له في الشرق، الأمر الذي لم يغفره العثمانيون للأمير فخر الدين وقرّروا معاقبته، وتمّ تكليف والي دمشق أحمد حافظ باشا بإعداد حملة عسكرية لتأديب الأمير.

حملة أحمد حافظ باشا

الأسباب غير المباشرة

ـ قلق العثمانيّين من تعاون الأمير فخر الدين مع الأوروبيين وتوقيعه معهم معاهدة تجارية في الظاهر، عسكرية في الجوهر.

ـ اتساع رقعة الإمارة المعنية وتعاظم قوتها العسكرية، والتي زادت بفعل المعاهدة المذكورة.

ـ إلحاح عدو الأمير ابن سيفا على والي دمشق، وهو المعروف أيضاً بعدائه للأمير، على تقليص نفود المعنيين.

هذه الأسباب اجتمعت لتكتمل بأوامر متناقضة من الأمير فخر الدين ووالي دمشق، إذ عزل هذا الأخير أنصار الأمير من مراكزهم في عجلون وحوران والجولان، فرد الأمير بإعادتهم إلى مراكزهم بالقوّة، الأمر الذي أغضب الوالي العثماني، وجعل حقده الدفين على الأمير ينفجر في حملة عسكرية قويّة وكبيرة ضد الإمارة المعنيّة.

أمام هذا الواقع الخطير، عمل الأمير على خطين متوازيين:

الأوّل: تمثّل بالاستعداد للقتال وتجهيز القلاع والحصون وتعزيزها بالمقاتلين وتأمين الذخائر والمؤن وخصوصاً قلعتي بانياس والشقيف.

الثاني: تمثّل بإرسال وفد من علماء صيدا وصفد وبيروت مصحوبين برسائل منه إلى حافظ باشا وعلماء دمشق وأعيانها للتوسط من أجل إنهاء النزاع، لكن الوساطة باءت بالفشل.

هذا الإخفاق المصحوب بوصول سفن الأسطول العثماني إلى شواطىء

الإمارة، استدعى من الأمير جمع أعيان إمارته في الدامور لدرس الموقف واتخاذ القرار المناسب.

لبّى الأمراء التنوخيون ومشايخ بعض المقاطعات دعوة الأمير. وبعد التداول لمس الأمير تخوّفاً من التصدي لحملة حافظ باشا وغياباً للرغبة في القتال. عندها قرّر الأمير ترك إمارته ومغادرة البلاد إلى توسكانة، مسلماً شؤون الإمارة إلى ابنه علي، على أن يساعده في حكمها وتدبير شؤونها عمه يونس.

إذن، باءت محاولات الأمير فخر الدين لإبعاد خطر الحملة العثمانية عن إمارته بالفشل، ولم يفلح في إرضاء الوالي العثماني الذي بقي مصراً على تأديب الأمير. وحظي هذا الإصرار بموافقة الصدر الأعظم نصوح باشا على الحملة، وزوده بقوات عسكرية بلغت ٨٠ ألف جندي، وبأسطول بحري لمحاصرة شواطىء الإمارة المعنيّة. وحذا ابن سيفا حذو الصدر الأعظم فوضع قواته في طرابلس بتصرف الوالي العثماني.

هذه الاستعدادات دفعت بالمعنيين، وبعد فشل محاولاتهم لإبعاد الحرب مع العثمانيين، إلى الرد باستنفار جيشهم وتوزيعه على قلاع الإمارة وحصونها.

سير الحملة

عام ١٦١٣ اقتحمت قوات أحمد حافظ باشا الإمارة المعنية واتجهت إلى قلعة بانياس، لكنه أخفق في السيطرة عليها؛ فتوجه إلى قلعة الشقيف، وحاصرها لمدة شهرين أبدى خلالها المدافعون عنها مقاومة شديدة فيما كان مقاتلو الشوف يخوضون معارك جانبية.

أمام صمود قلاع الأمير وحصونه عمد أحمد حافظ باشا إلى معاقبة الأهالي بإحراق قراهم وبيوتهم ومزروعاتهم.

ولتجنب المزيد من الخراب والدمار، توجّهت والدة الأمير فخر الدين السيدة نسب إلى حافظ باشا، يرافقها ثلاثون من رجال الدين، وطلبت رفع الحصار عن القلاع وانسحاب جنود الوالي من الشوف. فوافق والي دمشق على ذلك مقابل دفع

غرامة بلغت ثلاثماية ألف غرش، فقبض منها ٢٨٠ ألفاً، وأخذ السيدة نسب رهينة حتى يدفع باقي المبلغ.

نتائج الحملة

كان لحملة حافظ باشا ضد الإمارة المعنية نتائج سلبية تلخّصت بالتالي:

ـ اضطرار الأمير إلى ترك الإمارة ومغادرتها إلى أوروبا.

ـ تخلي الأمير فخر الدين عن بيروت وكسروان لعدوه اللدود ابن سيفا.

ـ تدمير دير القمر وحرق منازل المعنيين.

ـ حصول أحمد حافظ باشا على غرامة مالية، وأخذ والدة الأمير رهينة.

ـ أما الإيجابية الوحيدة، ورغم كل الخسائر فقد بقي الحزب القيسي في الحكم ممثّلاً بالأمير علي ابن فخر الدين.

الفصل الخامس

فخر الدين في أوروبا
(١٦١٣ ـ ١٦١٨)



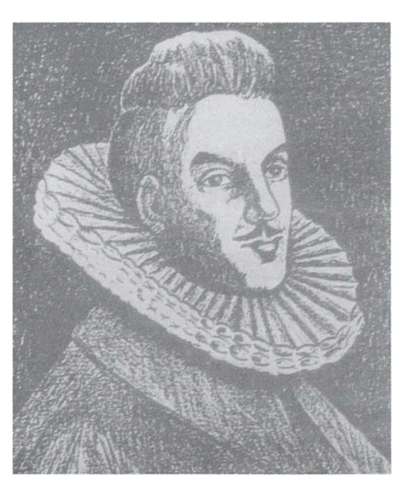
فخر الدين بريشة الإيطالي ليلو

اضطر الأمير فخر الدين نتيجة حملة أحمد حافظ باشا إلى ترك لبنان، فغادر إمارته في أيلول سنة ١٦١٣ متوجّهاً إلى أوروبا، على متن مركبين فرنسيين وآخر هولندي. وتمّ الابحار من صيدا، وكانت برفقته زوجته خاصكيّة الظافري ومستشاره الحاج كيوان وخمسون رجلاً من حاشيته. إستغرقت رحلة الأمير ٥٣ يوماً ليصل إلى مدينة ليفورنو في توسكانة في تشرين الثاني، حيث مكث أسبوعاً، ثم انتقل إلى

فلورنسا عاصمة توسكانة. وهناك استقبله الدوق قوزما الثاني الذي خلف والده فرديناند في الحكم، وأنزله في «القصر العتيق» الذي يعد من أجمل قصور توسكانة.

محادثات الأمير في توسكانة

أثناء إقامته في توسكانة أجرى الأمير فخر الدين محادثات مع الدوق قوزما الثاني طلب منه خلالها أن يمده بدعم عسكري ليتمكّن من مقاومة العثمانيين. فتردد قوزما في بادىء الأمر، لكنه عاد ووافق بعد تقديم بعثة أرسلها إلى لبنان تقريراً أكدت فيه على قوّة فخر الدين ومناعة حصونه واستعداد أبناء الإمارة للقتال إلى جانبه.



قوزما الثاني

حينئذٍ عرض قوزما الثاني على الأمير فخر الدين رغبته في توجيه حملة عسكرية بمفرده، لكن الأمير رفض هذا العرض مفضلاً اشتراك البابا ومعظم الدول الأوروبيّة في الحملة ليضمن لها النجاح، لكن قوزما رفض ذلك.

وتعليقاً على محادثاته مع قوزما الثاني، قال الأمير فخر الدين في رسالة وجهها إلى اللبنانيين «إن المفاوضة بين فريقين غير متساويين من حيث القوّة ضرب من الاستجداء. وعليه فإني أشور عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم أولاً، هذا إذا أردتم أن تنالوا استقلالاً محترماً ومركزاً مرموقاً بين الشعوب».

ويؤكد فخر الدين في رسالة ثانية بعث بها عندما علم بأن الأتراك احتجزوا

والدته بسبب هذا الاستقلال بقوله: «وبما أننا قد وضعنا نصب أعيننا هدفاً لن نحيد عنه، ألا وهو استقلال بلادنا وسيادتها، فإننا قد عقدنا العزم على ألاّ نتأثر بما يعرض علينا من وعود أو تهديدات».

وخلال إقامة الأمير في توسكانة توسط قوزما الثاني مع العثمانيين من أجل عودة الأمير فخر الدين إلى لبنان. لكن العثمانييّن رفضوا ذلك، وعرضوا على الأمير تولي حكم إحدى المقاطعات اليونانية والعفو عنه شرط البقاء خارج لبنان. فرفض الأمير العرض العثماني لأن هدفه لم يكن السلطة بحدّ ذاتها، بل العيش في وطنه.

عفو العثمانيين عن الأمير

أثناء وجود الأمير في توسكانة شهدت الدولة العثمانيّة متغيرات أساسية أدّت إلى العفو عنه، حيث توفي الصدر الأعظم نصّوح باشا عدو الأمير، ليحل مكانه محمد جركس باشا وهو صديق الأمير. كما عزل والي دمشق أحمد حافظ باشا.

وأطلق محمد جركس باشا سراح السيدة نسب والدة الأمير وأعطاها كتاب العفو عن الأمير والسماح له بالعودة إلى وطنه. فأرسلت السيدة نسب الكتاب إلى الأمير لكنه كان قد غادر توسكانة إلى صقلية، الجزيرة الإيطاليّة التي كانت خاضعة للنفوذ الإسباني، بدعوة من حاكمها الدوق دسّونا.

الأمير في صقلية

رغب دوق صقلية من دعوته للأمير في تحقيق هدفين:

الأوّل: إيهام الدولة العثمانيّة التي كانت في حالة حرب مع إسبانيا بأنه يعدّ العدّة لمساعدة الأمير في استعادة إمارته فتلجأ الدولة العثمانيّة عندها إلى تحويل سفن أسطولها عن الشاطىء الصقلي إلى الشواطىء اللبنانيّة.

الثاني: محاولة تنصير الأمير الذي أجاب: «ما جئنا نطلب ديناً ولا حكماً، وإنما جئنا للحماية»، فطلب إليه دسونا عند ذلك مساعدة إسبانيا في صراعها مع الدولة العثمانية فرفض، ورفض أيضاً قيام الملك الفرنسي بوساطة مع العثمانيين

للعفو عنه.

لكن هدف الأمير كان مغايراً لأهداف دسونا. فقد أمل في الحصول على مساعدة عسكرية من حاكمها. ولما فاتحه بالأمر أخذ يماطل ولم يستجب لطلبات الأمير. وفي هذه الأثناء بلغه كتاب العفو عنه من والدته فاستأذن حاكم صقلية، وعاد إلى لبنان في أيلول ١٦١٨، حيث استقبله الأمراء اللبنانيون بالهدايا فقبلها ما عدا هدايا آل سيفا. وفي هذا الصدد يقول الخالدي: «قبل الأمير جميع هدايا الأمراء وقام بواجب جماعتهم وخلع عليهم وعادوا وخواطرهم منه مجبورة ما عدا بيت سيفا فإنه لم يقبل هديتهم، ورد الخيل والهدايا التي جاءت معهم وقال لهم باللسان: «ما نحن محتاجون إلى هذه الخيل وإنما مرادنا أخشاباً نعمر بها حارتنا التي أحرقها حسين باشا في الدير».

نتائج إقامة الأمير في أوروبا

أقام الأمير فخر الدين في إيطاليا نحو خمس سنوات كان لها نتائج سلبيّة وإيجابيّة.

وتمثّلت النتائج السلبيّة بعدم الحصول على المساعدات العسكرية التي كان يأمل بها لاستعادة إمارته والاستقلال بها عن الدولة العثمانيّة، ولمس من جهة أخرى المطامع الأوروبيّة في الشرق وثرواته.

أمّا النتائج الإيجابيّة، فتكمن بما رآه الأمير في إيطاليا من تقدّم اقتصادي وازدهار عمراني ورقيّ اجتماعي، فاصطحب معه عند عودته إلى لبنان خبراء ومهندسين وبنّائين ومزارعين إيطاليين لتدريب اللبنانيين ومساعدتهم على النهوض بوطنهم في شتى المجالات.

الإمارة اللبنانية في غياب الأمير

كما رأينا، تسلّم الإمارة في غياب الأمير ابنه علي يعاونه الأمير يونس، الذي اعتقد ومعه أعيان الإمارة اللبنانيّة أنهم بدفع الأموال لوالي دمشق أحمد حافظ باشا أنقذوا الإمارة من انتقامه. إلا أن الوالي، وبعد انسحابه عام ١٦١٣ مقابل ثلاثمائة ألف غرش، عاد إلى مهاجمة الإمارة، عام ١٦١٤، فلقي جنده مقاومة باسلة من الأهالي ولا سيما في موقعة بسري الأولى التي كبّده فيها اللبنانيون نحو ٥٠٠ قتيل. وانتصروا أيضاً في موقعتي الباروك وبسري الثانية. فردّ حافظ باشا بنهب القرى وإحراقها، مع بعض قصور المعنيين في دير القمر، وهدمها.

وعمد حافظ باشا إلى السناجق والنواحي التي كانت تابعة للمعنيين باستثناء الشوف، وعيّن عليها حكاماً من قبله، لكن هؤلاء عجزوا عن تهدئة الأوضاع وجباية الأموال بسبب معارضة الأهالي لهم.

ورغم إجراءات حافظ باشا وتأليبه الخصوم المحلّيين مثل آل سيفا على المعنيين، استطاع اللبنانيون أن يحافظوا على قوتهم. وما أن استهل عام ١٦١٦، حتى كانوا قد استعادوا حكم مناطق كسروان والغرب والجرد والمتن وبلاد بشارة وصفد ولم يخسروا إلا القلاع التي أصرّ والي دمشق على هدمها.

الفصل السادس

علاقة فخر الدين بتوسكانة بعد عودته إلى لبنان

بعد عودة فخر الدين من توسكانا سنة ١٦١٨ لم يحقق هدفه السياسي والعسكري، بل تمكّن من حصول وعود اقتصادية وعمرانية نقلها معه إلى لبنان، وتوجه بسياسته نحو شمال لبنان وقوّى ارتباطاته مع البطريرك الماروني الذي توسط له مع البابا لدفع توسكانا على مساعدة الأمير عسكرياً وتحقيق مطالبه الاقتصادية والعمرانية.

ونستنتج بأنه لولا هذه العلاقة الطيبة مع الموارنة لفقد الأمير فخر الدين الثاني فترة ذهبية من تاريخه، وهي تحقيقه للوحدة اللبنانية عند استعادته مقاطعات الشوف والغرب والمتن وكسروان والفتوح وصيدا وصفد، وأيضاً سيطرته على بيروت في المرحلة الأولى، التي أصبحت مركزاً لقصره ومنفذاً للجبل على البحر لانفتاحه نحو الغرب.



فخر الدين في فلورنسا

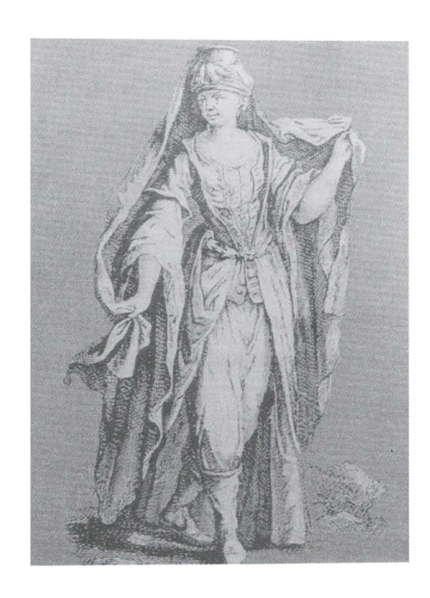
أولاً: العلاقات السياسية:

أ ـ مهمة القاصد الرسولي في فلورنسا:

توصل المطران جرجس بن مارون إلى إقناع الكردينال فرنسيس بربريني، ابن أخي البابا أوربانوس الثامن، بفوائد حملة الكرسي الرسولي لاستعادة الأراضي المقدسة بمساعدة فخر الدين.

وفي شهر آذار ١٦٢٥،

أوفد قداسة الحبر الأعظم إلى بلاط توسكانا الأب توما النوفاري الفرنسيسكاني، فبلّغ مجلس الوصاية التوسكاني والقاصد الرسولي إن فخر الدين كتب من بيروت بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ١٦٢٤ إلى قداسة البابا حاثاً إياه على صرف الهمة إلى احتلال الأراضي المقدسة، منتهزاً فرصة الفوضى السائدة في الامبراطورية العثمانية. وقد عرض على قداسته قواته التي برهنت عن كفاءتها في الانتصارات العديدة التي حققها. وكان كل من الاتراك والعجم المتحاربين يجتهد في استمالتها؛ ولما كان القيام بهذه الحملة الخطيرة يتطلب الوقوف على تفاصيل متعلقة بصنف القوات الواجب تجهيزها وبالأماكن التي يؤمل النجاح باحتلالها، عرض الأمير المجيء بنفسه إلى إيطاليا، ليشرف على تنظيم هذه القوات حسب رأي قداسته.



وزوجته خاصكيّة

وكان جواب الغراندوق أن الأمير ذو إقدام وبأس وفطنة، فيجدر أن تؤخذ الخدمات التي عرضها بعين الاعتبار. بيد أنه رؤي أن مجيئه إلى إيطاليا قد يثير الحسد والغضب في قلب الأتراك. وهنا أيضاً رأى الكرسي الرسولي أن هذا

المجيء لا يعود على المشروع بفائدة تذكر، بل يصبح خطراً على مملكة الأمير نفسها.

فأجاب البابا الأمير على كتابه مشيراً عليه بالعدول عن المجيء، وحاثاً إياه على مواصلة حمايته الفّعالة للمسيحيين في الشرق، مثنياً على مروءته في تأدية الخدمات التي عرضها ووعده بالنظر فيها بعين الغيرة الرسولية، رغماً عن وقوف قلاقل أوروبا وخاصة إيطاليا حجر عثرة في سبيلها الآن.

ب ـ مهمة سانتي:

فأوفد الغراندوق إلى روما المهندس سانتي، أحد أعضاء بعثة السنة ١٦١٣ إلى لبنان، ليفاوض الكرسي الرسولي في صدد هذا المشروع، فاجتمع مراراً بمندوبي الكرسي الرسولي. بيد أن الاجتماعات لم تسفر عن نتيجة حاسمة، نظراً لاضطراب الحالة في أوروبا واشتباك أغلب دولها في حرب الثلاثين لتأييد هذه الفئة المحاربة أو تلك. أخيراً رأى الكردينال بربريني نزولاً على إلحاح المطران جرجس أن يجهز على نفقته بعثة من الخبراء إن لم يكن لمفاوضة الأمير، فللمحافظة على حسن استعداده.

كتب سانتي أيضاً في ٢٨ حزيران ١٦٢٨ من بيزا (إيطاليا) إلى كاتم أسرار الغراندوق: «إلحاقاً لما عرضته لسموه في أثناء إقامتي في رومية، أفيد بأننا عقدنا أكثر من جلسة للنظر في المساعدات التي طلبها الأمير.. . بيد أنه سأل قداسته وسموه أن ينفذا إليه أشخاصاً جديرين بالثقة ومخولين السلطة الكافية ليعقد معهم اتفاقاً قبل الشروع في العمل وفي النفقات. أما السيد كارلو (اتصل بالأمير) فارتأى أن يحرر عقد المحالفات ويوقع في رومية حرمة للكرسي الرسولي، وأن يوفد إلى الأمير الأب العاقوري (الخوري نصرالله شلق) والضابط جبرائيل نيكولتّي Nicoletti الخبير في التحصينات وشخصاً آخر يعينه الغراندوق ليطلع على مجرى المفاوضات ويشترك فيها بالنيابة عن سموه، وأن يسافر هؤلاء برفقة رئيس أساقفة قبرص العائد قريباً إلى وطنه على أن لا يخول هؤلاء سلطة التعاقد بل تقتصر مهمتهم على استطلاع نيات الأمير ومعرفة قواته وآماله في الفتوحات، وعلى أي أساس يطلب

مساعدة المسيحيين وما نوعها وما هي المكافآت التي يعد بها والضمانات التي يقدمها وعلى الأمير أن يوفد إلى رومية مندوبين مزودين بالسلطة الكافية للتعاقد باسمه».

ج ـ الفوائد السياسية والدينية للحملة:

١ ـ أن يصبح تادي بربريني، شقيق البابا أوربانس الثامن، أميراً على قبرص.

٢ ـ أن يتوج فردناندو الثاني غراندوق توسكانا ملكاً على أورشليم.

ويقول بولس قرألي «بأن الأمير وعد بأنه سيجاهر بنصرانيته ويعمّد أسرته وذويه ويحمل جميع رعاياه وحلفائه على الاقتداء به فينضوون، سواء كانوا مسيحيين منشقين أو غير مسيحيين، تحت لواء الحبر الأعظم ويصبح لبنان مركزاً للكثلكة في الشرق، ومملكة قوية متحالفة مع ملك الفرس وأمراء العرب العاصين على الدولة العثمانية، ومع ملوك الغرب النصارى فتحمي أساطيلهم الراسية في قبرص شواطئه، إلى أن يتسنى له إنشاء أسطول لبناني وتحمي مملكة أورشليم التوسكانية جانبه الأيسر. أما في البر، فهو الكفيل بصد القوات العثمانية وحده مهما بلغت من القوة والعدد.

ثانياً: العلاقات التجارية:

١ ـ التسهيلات المتبادلة (بين لبنان وتوسكانا)

كان القمح والحبوب شحيحة في أوروبا بسبب الحروب الناشبة فيها. فكانت المراكب التوسكانية تصل إلى صيدا مزودة بكتاب توصية إلى الأمير من الغراندوق ليسهل عليها شراء القمح من لبنان بأسعار معقولة.

وأوصى الأمير إلى ربابنة المراكب التوسكانيّة القاصدة إلى لبنان، برفع الراية الفرنسية لأن توسكانا كانت عدوة للدولة العثمانية.

وبالمقابل، أعطت توسكانا التسهيلات للتجار الذين يبحرون من ليفورنو إلى لبنان، لشحن القمح وغيره من المحاصيل.

٢ ـ البضائع المتبادلة:

البضائع التي كانت تصدر من صيدا إلى توسكانا أهمها الكتان والقطن والحرير والزجاج والأرز والقمح والصابون والرماد والقمح. . .

والبضائع التي كانت تستورد من توسكانا أهمها: خيوط القصب الذهبية والفضية، والأجواخ، وورق الكتابة، والأقداح، والمرايا، والأباريق، والأمواس، والمسامير، الخ. . .

ثالثاً: العلاقات العسكرية:

وقع المطران جرجس بن مارون تقريراً إلى قداسة البابا في سبيل الاستيلاء على مملكة قبرص ومدينة أورشليم.

أ ـ الاستعداد:

«إن الأمير فخر الدين الثاني على استعداد:

١ ـ أن يقدم رجالاً ومؤونة للجيش المسيحي.

٢ ـ أن يسلم العمارة المسيحية ثغراً وأكثر من ثغور مملكته لتلجأ إليه في فصل العواصف.

٣ ـ يعد بتسليم الحملة المسيحية مدينة أورشليم يداً بيد وتقديم كل ما يسعه تقديمه من المساعدات في مدة هذه المحالفات.

٤ ـ يعد بأن يسمح لجميع رعاياه باعتناق المذهب الكاثوليكي، وأن يكون هو أول من يجاهر بنصرانيته ويعمد أسرته.

٥ ـ ولهذا الغرض قد أحدث للمسيحيين على نفقته كنائس كثيرة أو رممها وأوصى بطريرك الطائفة المارونية وبقية الأساقفة أن يقتدوا به.

٦ ـ يعد أيضاً بتأييد السلطة الكنسية في كل مملكته وتنفيذ أوامرها بكل دقة وإعفاء الإكليروس والكنائس وأوقافها من كافة الرسوم والضرائب التي جرت العادة بتحميلها للعلمانيين.

٧ ـ يعد بأن لا يعقد اتفاقاً أو عهداً مع السلطان أو مع أحد وزرائه قبل أن يطلع قداسته وسمو الغراندوق عليه. . .

٨ ـ يعد بأن يقدم لقداسته ولسموه الرهائن التي يطلبانها تأميناً لانجاز العهود السابق ذكرها.

٩ ـ يعد بأن يحمل غيره من امراء العرب ومشايخهم على محالفة الجيش المسيحي.

ب ـ مطالب فخر الدين من توسكانا:

ولقاء هذه العهود يأمل تلبية مطالبه الآتية:

١ ـ أن يجهز قداسته وسمو الغراندوق عمارة لا تقل عن خمسين مركباً لتحتل جزيرة قبرص. واحتلالها سهل المنال لقلة عدد حاميتها من الاتراك ولنفور أهلها من مظالم عمالهم. ولضعف أسطول العثمانيين. . .

٢ ـ أن يمداه ببعض المعدات الحربية والبارود والرصاص اللازمة له لمقاومة العثمانيين لأن هذه المعدات ليس لها وجود في الشرق.

٣ ـ أن يثابر قداسته وسموه على صداقة الأمير ومحالفته ويبادلاه الرهائن ضماناً للعهود والشروط الآنفة الذكر، وأن يعاهداه على نجدته في اثناء الحرب على الأقل بحراً، وهو يعاونهما على انجاد الجيش المسيحي في زمن الحرب براً وبحراً وتقديم كل معونة مفيدة وضرورية له.

رابعاً: الأعمال العمرانية والزراعية:

أ ـ لائحة الخبراء والمهندسين البنائين التي طلبها فخر الدين من توسكانا:

١ ـ طلب مهندساً أو رئيس بنائين ماهراً في مد الجسور فوق الأنهر.

٢ ـ طلب مهندساً آخر خبيراً في جر المياه وخزنها وبناء السبل (مفردها سبيل المياه).

٣ ـ مهندس خبير في بناء القصور والتحصينات ومعه نجار ليساعده في مهمته.

وللغراندوق أن يعين لهؤلاء مرتبات شهرية أو سنوية وأن ينقل الأمير على نفقته الخبراء ويؤمن لهم المساكن وأمكنة الإقامة فيها.

ب ـ لائحة الفلاحين والخبراء الزراعيين:

١ ـ طلب الأمير ست أو ثماني عائلات من الفلاحين ليدربوا اللبنانيين على كيفية استخدام الطرق الحديثة للزراعة، وأن يأتوا بالأدوات الزراعية اللازمة لاعمالهم، وأن يجلبوا معهم أيضاً زوجي ابقار من أجود ما في بلادهم.

وعلى الأمير أن يعين لهم رهباناً لإقامة القداس حسب رغبتهم.

٢ ـ من مطالب الأمير أيضاً:

ـ طبيب ماهر.

ـ جنائني.

ـ خباز.

ـ قارب لاتيني ببحارته يبقى تحت تصرف الأمير ليرسل عليه وقت الحاجة خزنته وما خف عليه حمله عند مغادرته البلاد.

* * *

إن أغلب المطالب العمرانية والاقتصادية والعسكرية لبّيت من قبل توسكانا، والشاهد على ذلك بقايا الآثار من قصور وقلاع وجنائن وجسور وأقنية في لبنان ترجع إلى عهد فخر الدين الثاني.

وهذه الآثار تظهر مدى ارتباط الأمير بتوسكانا، ومدى التعاون العمراني والاقتصادي والتجاري معها.

الفصل السابع

عودة فخر الدين ومرحلة توسع الإمارة

كان لعودة فخر الدين من أوروبا بدون حملة عسكرية، علق عليها الكثير من الآمال، تأثير سيىء في نفوس اللبنانيين، لكن هذا التأثير لم يصل بهم إلى حالة اليأس والقنوط، خصوصاً وأن الأمير عمد منذ وصوله إلى وضع سياسة لم تختلف عما اتبعه في مرحلة ما قبل أوروبا كثيراً، لكنها مكّنته من استعادة الإمارة وتحقيق الوحدة اللبنانية. وتخطت سلطته حدود إمارته إلى المناطق المجاورة في سوريا وفلسطين.

وقامت سياسة الأمير في هذه المرحلة على إعادة توحيد الإمارة، والانتقام من خصومه وفي مقدمهم يوسف سيفا الذي استغل غياب الأمير وهاجم دياره وأحرق قصوره وديار حلفائه.

أما الاتجاه الثاني في سياسة الأمير فهي السعي إلى كسب ودّ المسؤولين العثمانيين، من خلال أصدقائه ومستشاريه، وكما كان يحصل، عن طريق المال والهدايا التي كان يقدمها لهم.

وبدأ الأمير تطبيق سياسته بعزيمة القادر، وبراعة عسكرية فائقة، ودبلوماسيّة حكيمة، حتى أن ما كان قد حقّقه سابقاً بدأ يتضاءل كثيراً إذا ما قورن بما لقيه من نجاح في هذه المرحلة، رغم نبال السخرية التي كان يوجهها نحوه أعداؤه والتي طالت شخصيته لجهة قصر قامته كما كانوا يقولون.

ومع ذلك، اعتبرت هذه المرحلة أكثر مراحل تاريخ الأمير إنتاجاً إذا ما أضيف إليها ما حقّقه من إنجازات عمرانيّة واقتصاديّة متأثراً في ذلك بما شاهده في أوروبا عندما نفى نفسه إليها.

مرحلة التوسع

بدأ الأمير فخر الدين بتنفيذ سياسته في الانتقام من خصومه. وسنحت له الفرصة لتصفية حسابه مع آل سيفا حين طلب إليه والي طرابلس عمر باشا الكاتانجي مهاجمة يوسف سيفا لمماطلته في تأدية الضريبة المفروضة عليه، وزاد الأمير عليها تعويضه عن الخراب الذي ألحقه ابن سيفا بالإمارة أثناء غيابه.

ولمّا تردّد ابن سيفا في تسديد الأموال، زحف الأمير فخر الدين بجيشه عام ١٦١٩ إلى بيروت، ومنها سلك الطريق الساحلي حيث سيطر على جبيل والبترون والكورة والضنيّة ليصل إلى عكار. وهناك حاصر ابن سيفا الذي هرب إلى حصن الأكراد والتجأ فيه. فخرب الأمير قلاع آل سيفا وقصورهم، ولحق بابن سيفا ليحاصره في الحصن المذكور، إلا أن وساطة والي حلب ودمشق أدّت إلى رفع الأمير للحصار مقابل ١٥٠ ألف قرش ونقل الحجارة من عكار بحراً إلى صيدا، ومنها إلى دير القمر لترميم قصورها، وذلك تحقيق للقَسَم الذي أطلقه: «وحق طيبة وزمزم والنبي المختار ما بعمّر الدير إلا من حجر عكار». ولذلك نجد في بقايا البنايات المعنية في دير القمر وفي مسجدها الذي لا يزال قائماً إلى الآن حجارة صفراء تدل على أن منشأها من بلاد بعيدة.

بعد ذلك، أعطاه والي طرابلس عمر باشا الكاتانجي التزام مقاطعتي جبيل والبترون وعيّن عليهما على التوالي أبا نادر الخازن والمقدم يوسف الشاعر. ثمّ نال التزام منطقتي عكار والضنيّة، واستغل فترة ضعف ابن سيفا واستولى على مقاطعة بشرّي.

وفي سنة ١٦٢٥ نال فخر الدين من الدولة العثمانية ولاية طرابلس التي بقي فيها ابن سيفا حتى وفاته في السنة نفسها باسم ولده حسن متعهداً دفع الضريبة

الخاصة بها، فاستجاب السلطان العثماني لطلبه.

وفي طرابلس، عمل الأمير على تنشيط التجارة وطلب إلى التجار الأجانب النزول فيها؛ فأخذوا يفدون إليها بعد أن كانوا قد امتنعوا عن الإقامة فيها لسوء معاملة ابن سيفا لهم.

واستعاد الأمير فخر الدين أيضاً المناطق التي كانت خاضعة لسيطرته قبل حملة أحمد حافظ باشا عام ١٦١٣. ومنها: صيدا وصفد والبقاع وطرابلس، وأصبحت سوريا الشمالية تحت رحمته. وفي سنة ١٦٢٢ أقطعه السلطان العثماني سنجقي نابلس وعجلون لتصبح الطريق إلى فلسطين وشرق الأردن مفتوحة أمامه، لكن والي دمشق رفض تسليمه السنجقين، السبب الذي أدّى مع أسباب أخرى إلى معركة عنجر عام ١٦٢٣.

معركة عنجر

تزامن رفض والي دمشق تسليم سنجقي نابلس وعجلون إلى الأمير، مع خوف آل حرفوش في البقاع من تعاظم قوّة الأمير ونفوذه، وانقلبوا على فخر الدين على الرغم من عفوه عنهم بعد عودته من أوروبا، وتناسيه موقفهم الداعم لوالي دمشق عام ١٦١٣. وتحالفوا مع والي دمشق مصطفى باشا مجدداً، وحشدوا جيشهم لمحاربته.

إلى ذلك، أخذ يونس الحرفوشي يدبّر الدسائس على الأمير لدى والي دمشق مصوراً له الخطر المحدق به وبالدولة العثمانية من جراء تعاظم قوّة الأمير وتوسّع إمارته. وكان بذلك يسعى لتحقيق هدفين:

الأوّل: ضرب فخر الدين.

الثاني: التزام سنجق صفد الذي كان في عهدة الأمير.

تجمعت أسباب المعركة، وزحف والي دمشق على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل باتجاه البقاع وانضمّ إليه يونس حرفوش وعمر ابن سيفا وأتباعهما.

ووصلت الأنباء إلى الأمير، فاتصل بحلفائه الشهابيين وجهز جيشاً قوامه ٤٠٠٠ مقاتل، والتقى الجيشان في ٢٣ تشرين الثاني عام ١٦٢٣ في عنجر، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين كان النصر فيها لمصلحة الأمير المعني، ووقع والي دمشق مصطفى باشا نفسه أسيراً بين يدي الأمير. لكن الأمير أحسن استقباله وأكرم وفادته وأطلق سراحه. فقدّر الوالي نبل أخلاق الأمير ثم ولاّه على البقاع ليصبح لبنان بكامله تحت سيطرة الأمير فخر الدين الثاني، وأنعم عليه بولاية غزة وسنجقية صفد وعجلون ونابلس.

إلاّ أن أمراء العرب في فلسطين، وخصوصاً حاكم غزة واللجون أحمد بن طربيه، عارضوا حكم فخر الدين لمقاطعاتهم وخاضوا ضده معارك عديدة انتهت بتخلي الأمير عن تلك المقاطعات، باستثناء صفد.

تقارب الأمر الواقع

إلا أن الواقع لم يتغيّر، فقد كان في تلك الفترة على عرش السلطنة مراد الرابع، وهو الذي نصّبه الإنكشاريّة والصباهيون الثائرون في السنة نفسها التي استولى فيها الفرس على بغداد والموصل. وقد رأى السلطان الحدث، وكان في الثانية عشرة من العمر، أنه من الحكمة الاعتراف بالأمر الواقع، فأقرّ الأمير فخر الدين والياً على عربستان من حلب إلى مصر وذلك بناءً على خط همايوني. فكان مقامه أعظم شأناً من مقام جده الأمير فخر الدين الأول الذي لقبه السلطان سليم بـ «سلطان البر». أما الأمير الحفيد فقد آثر أن يلقب بـ «أمير جبل لبنان وصيدا والجليل»، ولم يبق كما يقول كاتب سيرته إلا أن يعلن ذاته سلطاناً.

ردّ الأمير على الخط الهمايوني السلطاني بإرسال ٢٠٠ ألف قرش ذهباً للدولة، ثم سار بجيش كبير إلى عكار، ومنها إلى حمص فحماه، وأرسل منها رسلاً إلى اللاذقيّة وأنطاكية فحصل على الضريبة. ثم انتقل إلى حلب وعاد إلى البقاع فنابلس فإربد، ثم إلى دمشق وبسط نفوذه حتى تدمر. وبذلك بلغت إمارته المدى الأوسع، فبدأ بتنظيمها ورمّم القلاع وخصوصاً في حلب وأنطاكية وبانياس والمرقب وتدمر، وفرض النظام وقضى على قطاع الطرق وسهر على راحة الناس.

وفي سنة ١٦٢٤ تهدد الجوع دمشق فأرسل إليها القوافل محملة بالغلال بمعدل ألف جمل يومياً. وفي سنة ١٦٣٠ وقع في حلب وباء الهواء الأصفر (الكوليرا) ففرض الأمير حظراً على المدينة وأتى بأطباء توسكانيين حتى حصر الوباء.

وجعل الأمير عام ١٦٣٢ بيروت العاصمة الثانية لإمارته الموسعة وبنى فيها القصور وأنشأ الحدائق ووضع التماثيل وجمع من حوله العلماء والشعراء.

حرص فخر الدين في هذه الفترة على كسب رضى الدولة العثمانيّة وإقامة العلاقات الحسنة مع كبار موظفيها في الأستانة. فكانت الضرائب تدفع قبل استحقاقها وتغدق الهدايا والأموال على المسؤولين العثمانيين في كل مناسبة. وبفضل هذه السياسة توفر له تأييد العديد من الوزراء، وذوي النفوذ، فرضيت عنه الدولة، وغضّت النظر عن توسعه، واستفادت من قدرته على حفظ الأمن وجباية الضرائب في المناطق التي التزمها.

وإذا كانت سياسة فخر الدين المذكورة، وانشغال السلطنة العثمانيّة في الحرب مع الصفويين في إيران، بالإضافة إلى الفوضى الداخلية التي أحدثها جنود الإنكشاريّة في الأستانة، دفعت السلطنة إلى عدم إيذاء الأمير، بسبب دوره في حفظ الأمن في مناطقه وتأدية الضرائب، فإن هذا السكون لم يدم طويلاً إذ برزت بوادر القلق مجدداً من تعاظم قوّة الأمير وتوسيع نفوذه وتحصين قلاعه وتقوية جيشه، وجعلت الحساد من حوله والذين ينظرون إليه طامعين بأمواله وخيرات إمارته، يكثرون من شكاويهم إلى السلطان مراد الرابع، الأمر الذي جعله يقرّر القضاء على الأمير بعد إخماد ثورة الإنكشاريّة وتحقيق بعض الانتصارات على الصفويين.

الفصل الثامن

حملة أحمد كجك
ونهاية فخر الدين

أسباب الحملة

أدّت الشكاوى المتكررة لدى السلطان ضد الأمير إلى سوء العلاقة بين الطرفين للأسباب التالية:

ـ حقد والي دمشق أحمد كجك، ووالي حلب على الأمير المعني.

ـ شكاوى الحزب اليمني المعروف بعدائه للمعنيين ضد الأمير.

ـ الاتهامات التي وجهها أعداء الأمير له وخصوصاً التنكر للمسلمين والتقرب من المسيحيين رغم عدم اعترافه بالطوائف وانتمائه للبنان فقط.

ـ عدم قطع الأمير صلته بالأوروبيين وبابا روما.

وفي هذا الأطار، لا بد من الإشارة إلى رسائل بعث بها الأمير إلى الكرسي الرسولي في روما وبلاط توسكانة يعرض فيها إقامة حلف عسكري ويتعهد بتبني النصرانية هو وعائلته.

وبموجب الحلف المفترض تقوم السفن الأوروبيّة باحتلال جزيرة قبرص وقيام حملة أوروبيّة للاستيلاء على القدس، وحماية الشواطىء، على أن يقوم الأمير بحماية البر في مواجهة العثمانيين.

ووعد الأمير في رسائله للأوروبيين بإعفاء الكنائس من الضرائب وتأييد السلطة الكنسية في كل مملكته وتنفيذ أوامرها بكلّ دقّة، فضلاً عن إطلاعها مسبقاً على أيّ اتفاق أو عهد مع السلطان العثماني أو وزرائه وتوقيع ذلك بموافقة السلطة المذكورة.

ومقابل ذلك، يطلب الأمير تزويده بالمعدات الحربية والبارود والرصاص اللازمة لمقاومة العدو ـ العثمانيين ـ لأن هذه الأشياء مفقودة في الشرق.

وفي رسائله، حاول الأمير عدم إثارة النعرات بين الأوروبيين من خلال إشراك معظم الأسر الحاكمة آنذاك في أوروبا، مخافة وقوع الخلاف في ما بينهم. وحملت هذه الرسائل شرط الإسراع في الحملات قبل أن يعرف العثمانيون بها ويجهزون أنفسهم للردّ، وبالتالي يكون مصير الحلف الفشل.

مراحل حملة كجك

لكن محاولات الأمير لدى الأوروبيين لكسب مساعدتهم باءت بالفشل، واقتنع السلطان العثماني مراد الرابع بأن الأمير فخر الدين أصبح يشكل خطراً على الدولة العثمانية فقرّر القضاء عليه، وكلّف والي دمشق أحمد كجك بتنفيذ هذه المهمّة.

وكان أحمد كجك قد عمل سابقاً لدى فخر الدين، وعلى معرفة تامّة بأوضاع الإمارة المعنيّة وأسرارها العسكرية، وغادر لبنان ناقماً بعد ارتكابه خطأً، وذهب إلى الأستانة فنال حظوة، وترقى في الوظائف حتى أصبح والياً على دمشق عام ١٦٣٢، وظلّ يحرّض ضد الأمير المعني ويحذر من علاقاته الأوروبيّة.

ونجح الكجك في بث الشقاق بين أنصار فخر الدين، وانضم إليه أعداء الأمير من الحزب اليمني.

ووفقاً لأوامر السلطان، شنّ الكجك حملة برية كبيرة قادها بنفسه، وبمساندة قوّة بحرية من الأسطول العثماني بقيادة أمير البحر جعفر باشا. وهاجم الأراضي اللبنانيّة عام ١٦٣٣.

أمام الحملة العثمانيّة، استدعى الأمير مجلس الشورى في الإمارة لاقرار ما يجب عمله، فتقرّر أن يظهر الطاعة لأوامر السلطان، ويسلّم القلاع، أملاً في تسوية تقوم على تقديم مبلغ من المال.

هذا القرار كان قرار الأمير الخاص: إذ يقول البعض أن «هذه الهفوة جرّت إلى هلاك الأمير وخراب مملكته، فقد كان بوسعه أن يقاوم القوات العثمانية غير المنظمة بجيشه المدرب أحسن تدريب والمسلح بأحدث السلاح، فضلاً عن قلاعه المنيعة التي صمدت عام ١٦١٣ أمام قوات لا تقل عن هذه، مع أنها لم تكن

بمناعة سنة ١٦٣٣. وكان الشتاء يقترب، فلا يسع المراكب العثمانيّة قضاؤه على الشواطىء اللبنانيّة، لأن الأمير طمر مدائنه ليمنع دخولها. أما قائد القوات البرية فكان داخل عنده الوهم من ابن معن». وفي هذه السياق ذكر الأب فيتالي «أن أبا نادر، قائد جيش الأمير العام، وغيره أشاروا على الأمير أن يمنع بالقوة نزول القوات العثمانيّة إلى البر أو يُفتك به». وهذا كان أيضاً رأي عمه الشيخ أبي صافي الخازن حاكم الجبّة.

سقوط الأمير علي

لكن الأمير اتخذ قرار التسوية. وتبدد أمله مع أول خطوة، إذ بعد أن فاز قائد الأسطول العثماني بالمال، وصل باشا دمشق بحملته البريّة وكان عليها أن تهاجم الشهابيين في طريقها إلى الشوف؛ فخاض معها الأمير علي بن فخر الدين معركة غير متكافئة في سوق الخان بالقرب من حاصبيا وانتهت بمقتله.

وفي هذا الإطار يقول الأب روجيه الذي كان يرافق الأمير فخر الدين كطبيب: «إن الأمير انتهز فرصة تأخر العمارة العثمانية، فأرسل إلى صفد ابنه الأمير علي باثني عشر ألف مقاتل، بينهم ألفا درزي وألف ماروني، ليمنعوا اتصال عربان فلسطين بالجيش العثماني». أما البطريرك إسطفان الدويهي فيقول: «فأخذ خبرهم الأمير علي وهو في صفد فزحف برجاله من صفد وما بات إلا في بانياس. ثم قام ليلاً كبس الدولة، عند الصبح فظفروا به وقتلوه وقتلوا رفاقه والباقي انهزموا».

وجاء في ملحق الخالدي: «فحينما شافته الدولة دخل عندهم حساب عظيم، فصعد صعدك باشا حاكم حماة إلى الجبل وأشرف على عسكر ابن معن فرآهم في قلّة لأنهم كانوا هربوا قبل ذلك الوقت الذي صمد نحو ألفي رجل لا غير. فدار إلى خلف ضهورهم وحطوهم مواسطة وعلق الكون فما مرق من عسكر ابن معن إلا القليل. ومن الأمير علي جاه رمح في كتفه ارتمى وما أحد عرفه إلا واحد فنزل وقطع رأسه».

بيد أن الأب روجيه خالف الروايتين السابقتين بقوله: «فهاجم الأمير علي

الجيش العثماني بشدّة فقتل منه ثمانية آلاف وخسر ستة آلاف من رجاله. وفي اليوم الثاني وصلت إلى الجيش التركي نجدة حلب التي جهزها موالي باشا.

في كل الأحوال، قتل الأمير علي «مع أن والده نهاه عن مصادمة الجيش العثماني وأوصاه بمناوشته فقط، هجم الأمير على ما بقي له من الرجال بجرأة لا مثيل لها فما بقي من جيش العدو سوى ١٦٠١ ولم يبق من رجاله سوى ١٤٦».

وعلى أثر الهزيمة أشاع مارك أنطونيو دوناني البندقي، صديق والي دمشق، أن الأمير علي قتل وادعى أنه شاهد بأم عينه رأسه محمولاً بمظاهر الفرح في دمشق، ليرسل منها إلى الأستانة. وكتب بهذا المعنى إلى التجار النصارى في صيدا وحلب وغيرها.

المرحلة الأخيرة

عقب مقتل ولده، تأكد فخر الدين من الهزيمة. وهو الذي كان قد وزّع قواته على القلاع والحصون للتحصّن فيها. وكانت قواته تشنّ الغارات على الجيش العثماني ليلاً منزلةً به خسائر جسيمة. وفي النهار يظهر مقاتلوه على المرتفعات ويلوحون للعدو بسيوفهم، ويدعونه للقتال ويستدرجونه إلى مكامن نصبت له.

لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً. فبعد تسليمه قلعتي صيدا وبيروت لقائد الأسطول العثماني وإعطائه مبلغاً كبيراً من المال، لجأ الأمير إلى قلعة نيحا فتبعه الكجك وحاول اقتحامها فلم يفلح، فعمد إلى خداع الأمير؛ فأرسل من يسرّ له أنه إذا دفع له أربعمائة ألف قرش ولّى مكانه الأمير منصور ثاني أنجاله.

إرتاح الأمير إلى هذا الحلّ وأرسل ابنه المذكور إلى الباشا بهديّة مؤلفة من ستين جملاً محملة بالنقود، وبعد بضعة أيام أوفد الشيخ أبا خطّار الماروني بأربعمائة ألف قرش. وكان هذا الشيخ على قدر كبير من حصانة الرأي والبسالة. فلما قبض الكجك المال قتل أبا خطّار وأرسل الأمير منصور إلى الأستانة.

وعندما لم يفلح الكجك في اقتحام قلعة نيحا، حيث اختبأ الأمير، توصل

إلى معرفة مصدر المياه التي تصل إليها فسممها؛ فانتقل فخر الدين منها إلى مغارة جزين. ولمّا تأكد أنه خاسر لا محالة، استسلم مع أفراد عائلته أملاً في المثول أمام السلطان العثماني ونيل رضاه.

نهاية فخر الدين في الأستانة

نقل الأمير فخر الدين أسيراً إلى الأستانة، وهناك استطاع إقناع السلطان ببراءته وأن يكسب رضاه بعد تأكيده له كذب الوشاة وصدق ولائه للدولة، لكن السلطان، حين علم بثورة ابن أخ الأمير فخر الدين، الأمير ملحم في الشوف، أمر بقتله وبقتل أفراد عائلته. ولم يسلم من أولاد فخر الدين إلا ابنه حسين الذي أبقاه السلطان لصغر سنه، وأدخله في حاشيته ليصبح فيما بعد سفيراً للدولة العثمانيّة في الهند.

وحول مقتل الأمير فخر الدين يقول كاتب دوق توسكانة السري في الأستانة فرنسيس فنتوريني في رسالة كتبت بالشيفرة: «ذكرت لك في رسائلي السابقة عن مجيء الأمير فخر الدين، أمير صيدا وصديق الغراندوق الحميم. اختبأ منذ سنتين في قلعة (نيحا) كانت امتنعت على الأتراك لو تركوا وشأنهم، بيد أن المدعو مارك أنطونيو من بادوڤا (يقال له بندقي) المقيم في دمشق والمشهور في تلك الأنحاء وقد جمع منها ثروة عظيمة، أشار عليهم بأن يفتحوها بالإزميل لغماً في الصخر. فاضطر الأمير المسكين إلى الاستسلام، واستاقوه مع أولاده إلى هنا. أما بقية أسرته فبقيت في دمشق. وصل الأمير إلى هنا منذ ثلاثين يوماً وعامله السلطان بالرفق، حتى أصبحنا كثيري الأمل بنجاته. فقد أثبت أنه قام سنوياً بتأدية الأموال الأميرية المترتبة عليه، بيد أن السلطان لم يتسلمها».

«وبعد أن سافر السلطان من هنا وأصبح على بعد خمسة وعشرين يوماً، بلغته حوادث الشام ومؤداها أن أحد أولاد أخ فخر الدين (الأمير ملحم) لجأ إلى قبيلة من العربان في الصحراء. ولما سمع بأسر عمه واحتلال الأتراك مملكته جمع حوله منهم جمعاً كبيراً وهاجم جيش باشا دمشق، فقتل (لم يقتل بل تمكن من الهرب).

لكن أولاده عادوا فجندوا عدداً كبيراً من العربان وهاجموا صيدا ومدينة أخرى أكبر منها. وهم الآن يعيثون فساداً في المدن، وأن باشا دمشق يستعد الآن للركوب عليهم. فلما بلغت هذه الأخبار السلطان أصدر أمره بقطع رؤوس زوجات فخر الدين وأولاده في دمشق، فقطعوها وعلقوها على دائر سور المدينة. وأوفد إلى هنا (الأستانة) أحد الباشوات مأموراً بقطع رأس فخر الدين. ففي الثالث عشر من نيسان قطعوا رأس الأمير وعرضت جثته ثلاثة أيام في ساحة الجامع الجديد، يحرسها الإنكشاريّة. وقطعوا أيضاً رأس ولد ثالث له جاء به قائد العمارة من سنتين (الأمير منصور) وكان أدخل القصر العثماني، أماتوا هؤلاء كلهم في يوم واحد...» وكتب على الرسالة سنة ١٦٣٥.

إذن، قتل الأمير فخر الدين وجميع أفراد عائلته في ١٣ نيسان عام ١٦٣٥، ولم يبق إلا ولده الصغير حسين.

الفصل التاسع

دولة فخر الدين



قبل التطرق إلى مصير الإمارة المعنية بعد مقتل الأمير فخر الدين، لا بد من استعراض الإنجازات التي حققها الأمير في فترات حكمه وخصوصاً في مرحلة ما بعد عودته من أوروبا، أي من ١٦١٨ وحتى عام ١٦٣٥ عام مقتله.

البناء العسكري

أنشأ الأمير فخر الدين جيشاً كبيراً تراوح عدده بين ٤٠ ألفاً و٦٠ ألفاً. وتألف من الوطنيين والمرتزقة، وتولى قيادته اللبنانيون وأشهرهم الأميران يونس والشيخ أبو نادر الخازن.

هذا الجيش الذي مكّن الأمير من بسط نفوذه وتوسيع إمارته والانتصار على خصومه جمع اللبنانييّن من كل الطوائف دون أي تفريق، وكانت ومهمته حفظ الأمن في الإمارة، وجباية الضرائب وكان مدرّباً بشكل جيّد، ومجهّزاً بالأسلحة الحديثة وموزعاً على القلاع الحصينة. وتألف هذا الجيش من ثلاث فئات هي:

ـ الجيش الوطني:

وهو من اللبنانيين، يتقاضى أفراده رواتب شهرية من الأمير. وفضلاً عن أن عناصره كانوا من كافة الأديان والمذاهب، فقد ضمّ القيسيين إلى جانب اليمنيين. وجمع في علمه شعار القيسيين الأحمر إلى جانب شعار اليمنيين الأبيض للتأكيد

على وحدة أبناء الإمارة التي سعى الأمير فخر الدين لتحقيقها.

ـ المرتزقة:

وهم من السكمان والعاصين على الدولة العثمانيّة، وكانوا يمتهنون الجندية ويتقاضون رواتبهم بانتظام، واعتمد عليهم الأمير فخر الدين في توسيع إمارته، وقد صمدوا في القلاع خلال فترة غيابه في أوروبا.

ـ الجيش المساعد:

كان فخر الدين في حملاته يستنجد بحلفائه كآل شهاب وحرفوش وقبائل البدو في عجلون وحوران. وعنهم يقول سانتي المهندس التوسكاني الذي زار لبنان عام ١٦١٤: «يستطيع أصدقاء الأمير من العرب أن ينجدوه بعشرة آلاف محارب، أغلبهم خيالة، مسلحون بالحراب والسيوف العريضة النصال، يجيدون مباغتة العدو، بيد أنهم يقوون على الصمود في ميدان قتال منظم، لا سيما إذا كان العدو مسلحاً بالبنادق، يميلون إلى الغزو والنهب والفتك»، وهو ما كان يحمل الأمير على أن لا يستدعيهم إلا في صلاته خارج الإمارة، خوفاً على البلاد من أذيتهم.

وعند انتهاء الحروب كانت القوات المساعدة تعود إلى مزاولة أعمالها.

فرق الجيش وأسلحته

تألف جيش الأمير من فرق الخيالة والمشاة، وكان سلاحهم البندقية والسيف وبعض المدافع. أما في البحر فلم يكن لدى فخر الدين سوى بعض السفن الحَربية الصغيرة التي لا تستطيع مجابهة الأسطول العثماني. وقال سانتي في هذا المجال: إن جيش الأمير لا يملك قوة بحرية بتاتاً لأن شعبه منصرف إلى الملاحة.

ويعزو بعض المؤرخين هذه الحالة إلى أنه كان يستحيل على الأمير أن يجهز، وتحت أنظار العثمانيين، أسطولاً يقاوم به عمارتهم، التي كانت تلقي الرعب في صدور الأوروبيين أنفسهم. ومن جهة ثانية، سعى لديهم طيلة حياته إلى إحلال الأوروبيين في جزيرة قبرص ليحموا بأساطيلهم شواطئه إلى أن يتسنى له تجهيز عمارة لبنانية.

ولمنع الأسطول العثماني من دخول الموانيء اللبنانية في صيدا وصور وعكا عمد الأمير إلى طمرها بالمراكب والحجارة. وعندما كان في توسكانة أكد لدوقها أنه «لا ينقصه للدفاع عن إمارته سوى قوات بحرية. أما في البرّ فلا يخشى الأتراك حتى لو جهزوا عليه مئة ألف مقاتل».

واستعان فخر الدين بخبراء من الدول الأوروبيّة لتنظيم جيشه وتسليحه. وكان مشاته يلبسون الثياب الخفيفة التي لا تعوق الحركة ويحملون البنادق والسيوف. وكان الخيالة يرتدون العباءات الواسعة ويحملون التروس بالإضافة إلى البنادق والسيوف. وكان عند الأمير بعض المدافع اشتراها من توسكانا وإسبانيا ونصبها في قلاعه، وخصوصاً في قلعة الشقيف.

ووصف سانتي جيش الأمير فخر الدين على الشكل التالي: «إن قوة الجيش راجعة إلى بسالة الأمير وما اكتسبه من الخبرة في الحروب العديدة التي خاضها، مما أدّى إلى وفرة الجنود وحسن نظامهم. ناهيك عن بأس شعبه وجبانة جيرانه. وفي وسعه، إذا بذل الجهد أن يجنّد من رعاياه ١٠٠٠٠ راجل و ٥٠٠فارس. فالرجالة يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة، يمشون وراء الراية بلا ترتيب ويحاربون بلا نظام. أما الفارس فيلبس ثقيلاً، يلتحف بجبة واسعة ويحمل البندقية ذات القدامة، لأن ليس لديهم سواها، أم بارودة هندية تبلغ قصبتها ستة أقدام طولاً خفيفة وصلبة وفي رأسها سن من حديد.

«يعلّق الفارس السيف في جنبه والدبوس في السرج ويحمل ترساً محاكاً من خيوط حريرية دقيقة يتلقى به السهم. وفي وسط الترس قرص من نحاس يردّ به ضربات السيف. يمتطون الخيول العربية الغالية الثمن الصبورة على التعب وذات السرعة المدهشة. ومع أن طعامها العشب وحفنة من الشّعير فهي تعمل بلا كلل ولا ملل. يسيرون جماعات بلا بوق، ويحاربون منفردين بين كرّ وفرّ. وكل الأمر في سرعة الحصان وخفّة حركاته. إذا عسكروا لا ينصبون المتاريس ولا ينشرون الخيم، أو ما شاكلها وقاية من لفحات الشمس ولذعات البرد وهطول الأمطار. حتى أنهم لا يستخدمون القشّ اتقاء للرطوبة. عندهم من الحيوانات لحمل الأثقال

وجرّ المدافع العدد الوافر، أما المدافع فنادرة ويجهلون استعمالها، يحمل كلّ جندي على كتفه زاد ثلاثة أو أربعة أيام. وعليه أن يقتني سلاحه من ماله الخاص. والأسلحة عندهم قليلة لأن ليس لهم معامل لصنع البنادق أو البارود، بل يستوردون البنادق من تركيا والبارود من انكلترا. لا يملك الأمير قوّة بحرية بتاتاً لأن شعبه منصرف عن الملاحة».

القلاع والحصون

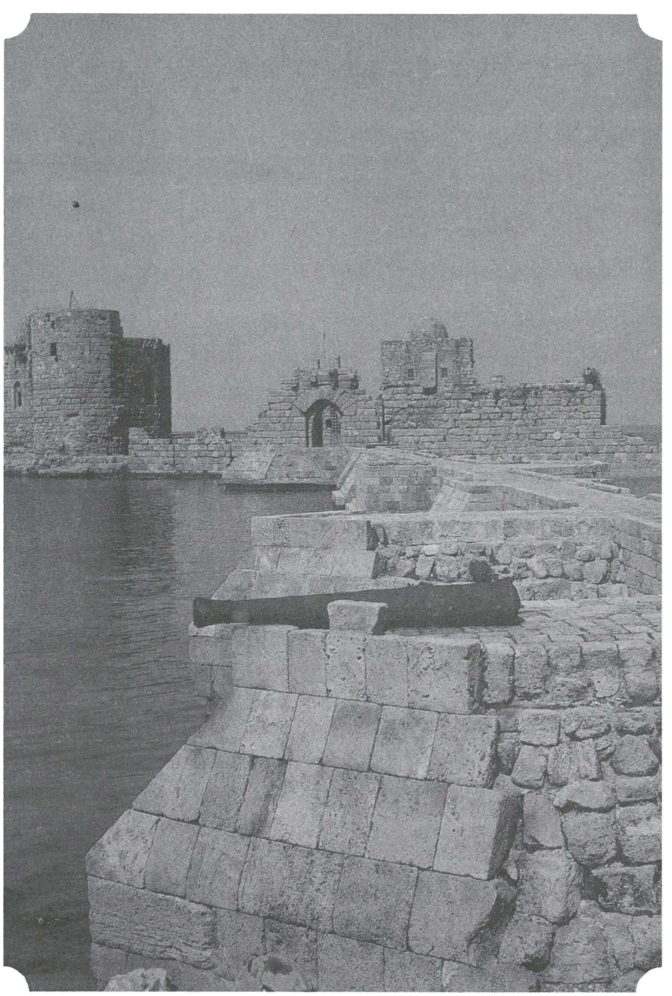
جهّز الأمير فخر الدين إمارته الواسعة، وعلى الرغم من رفض الباب العالي، بمجموعة من القلاع والحصون والأبراج، بنى بعضها ورمّم البعض الآخر، واستطاع بواسطتها حماية أراضي إمارته، وصون طرق المواصلات فيها من اعتداءات قطاع الطرق وتوفير الأمن للمسافرين والتجار، وتحصّن بها لصد هجمات الولاة العثمانيين. وقد عزز الأمير هذه القلاع بحاميات عسكرية وزودها بالمدافع. وأهم هذه القلاع:

ـ قلعة نيحا أو شقيف تيرون، وهي قلعة قديمة منحوتة في الصخر، كانت ملجأً حصيناً للجنادلة في السابق ومن بعدهم المعنيين. نجت من الهدم الذي قرره جركس باشا عام ١٦١٦.

ـ قلعة شقيف أرنون المعروفة بقلعة الشقيف وتقوم على تلة مرتفعة فوق مجرى نهر الليطاني. وكانت أهم قلاع فخر الدين وآمنها. وقد جعلها مخبأً لأمواله. دعاها الصليبيون بوفور أي الحصن الجميلْ، ويروى أن الأمير أخذها من صاحبها خدعة، وحصّنها تحصيناً قويّاً. هدمها جركس باشا سنة ١٦١٦. وسنة ١٦٢٩، طلب الأمير من دوق توسكانة رسمها ليعيد بناءها.

ـ قلعة صيدا البحرية وهي بناء صليبي يتصل بالبر بواسطة جسر ضيق. رمّمها فخر الدين ووضع حامية فيها لحماية الميناء من هجمات القراصنة.

ـ قلعة بانياس، وتلي قلعة الشقيف من حيث الأهمية، وتقع بالقرب من بلدة بانياس في جنوب سوريا، هدمها العثمانيون أثناء وجود فخر الدين في أوروبا، لكن



قلعة صيدا

الأمير أعاد بناءها سنة ١٦٢٥.

ـ قلعة بعلبك، وهي قلعة عظيمة من عهد الفينيقيين، حاصرها الأمير عام ١٦٢٣ فلم يقو عليها، لكنه عاد وأخذها في السنة نفسها بعد معركة عنجر التي انتصر فيها، هدم جزءاً منها ثم رمّمها عام ١٦٢٤.

ـ قلعة تدمر وهي شهيرة في التاريخ والآثار وتعرف بقلعة «ابن معن» وما زالت قائمة حتى اليوم.

ـ حصن الأكراد أو قلعة الفرنجي وهي قلعة عظيمة عرفت في عهد الصليبيين بحصن الفرسان حاصرها الأمير عام ١٦١٨ ورجع عنها صلحاً وتسلمها بعد موت يوسف سيفا مع أولاده.

ـ قلعة صور: عام ١٦٠٧ عرض الملك الإسباني على الأمير فخر الدين بناء قلعة في صور، حيث كان الأمير يونس يسكن فيها قصراً حصيناً أثار الشبهة لدى الباب العالي عام ١٦١٩. فيها الآن برجان: برج الميناء وقد خربته الأمواج والثاني يقوم على تل عند مدخل المدينة.

ـ قلعة بيروت، وكان لها برج غير الكشاف يعرف «ببرج بيت الأمير جمال الدين»، وصف بأنه «برجٌ منيع حاكم على جميع أنحاء المدينة وبيوتها».

ـ قلعة جبيل، وهي قديمة جدّاً من عهد الصليبيين، نزعها من يوسف سيفا عام ١٦١٨، وهدمها ليجعل حدود ابن سيفا الجنوبية تحت رحمته.

قرار الحرب

كان الأمير فخر الدين يتخذ قرار الحرب بعد استشارة المقربين، ولا سيما والدته الأميرة نسب ومدبره الحاج كيوان وبعض قادته وحلفائه من الأمراء والمشايخ المخلصين له. وعند إعلان الحرب، كان يتمّ إعلام القوى المحلية بإبقاء النيران على قمم التلال والجبال أو بإرسال الرسل إلى المقاطعجيين فينادي المنادون على الناس ويستنفرونهم للإسراع إلى القتال فيبادر هؤلاء إلى تلبية الدعوة مزودين بأسلحتهم، وزادهم وخيلهم.

التنظيم الإداري

كانت الإمارة اللبنانية مؤلفة من مقاطعات مستقلة، لكل منها أميرها ونظامها وجيشها الوطني، ولكل مقاطعة أيضاً أسرة عريقة توارثت الحكم فيها.

وكان نظام الحكم إقطاعياً، واستعان فخر الدين في تنظيم إمارته بمستشارين من مختلف الطوائف يتقاضون رواتب شهرية من خزينة الدولة، وخصوصاً من آل الخازن وحبيش بالإضافة إلى الحاج كيوان، واعتمد أيضاً على أقاربه وأفراد عائلته وخصوصاً والدته السيدة نسب التي كانت له خير مرشد.

واعتمد فخر الدين سجلات للبنانيين القادرين على حمل السلاح، ونظم جباية الضرائب عن طريق إحصاء لأعداد الأشجار المثمرة، والمواشي في كل بلدة ليتمكن من فرض ضرائب عادلة وجبايتها.

أما من الناحية القضائية، فقد تولى الأمير الإشراف على القضاء بصورة عامة، وكان يحكم بنفسه في القضايا السياسيّة المهمّة أو المجرمين، وترك أمر الحكم في القضايا المدنية والدينيّة والأحوال الشخصيّة لرؤساء الطوائف، أو رجال الدين الذين كان القضاء بيدهم.

الحياة الاقتصاديّة

الزراعة

اهتم الأمير فخر الدين بالزراعة وتربية المواشي والصناعات الناتجة عنها. وللتأكيد على ذلك عمل بعض أعداء الأمير، لما أرادوا إغراء نصّوح باشا لاحتلال الإمارة المعنيّة، بقولهم: «إن بلاد ابن معن عامرة وأهلها متكاثرة وأنه يحصّل منها أموال جمة». وبعد الحملة العثمانيّة عام ١٦١٣ يقول الخالدي «ومع ذلك كان الرخاء موجوداً والغلال في القرايا بلا حدّ ولا قياس».

وكان الزيتون والحبوب والتوت والفاكهة والقطن عماد الزراعة في تلك الفترة، وقد شجّع فخر الدين زراعتها، واستقدم ذوي الخبرة من توسكانا لتعليم الفلاحين أساليب تحسينها وزيادة إنتاجها كاستنبات أنواع جديدة من أشجار الزيتون واستصلاح الأراضي وزراعة أشجار التوت لتربية دود القزّ.

وكانت الزراعة ومواسمها المصدر الأساسي لمعيشة معظم اللبنانيين وسبيلاً لزيادة ثروة المقاطعجيين، وموردأ مهماً لخزينة فخر الدين، إذ كان الفائض منها يباع ولا سيما الزيت والحرير والحنطة.

واهتم فخر الدين بتربية الماشية واستقدم معه من إيطاليا أنواعاً من البقر والثّيران وعدداً من الفلاحين المختصين للاهتمام بالأبقار وتحسين إنتاجها.

واشتهر أهل بشرّي بتربية دود القزّ، فدفع بهم الأمير إلى العيش في مناطق لبنانيّة أخرى لتعليم أهليها هذه الطريقة، وكثر التوت في لبنان، وأصبح الحرير من المواسم اللبنانيّة الأولى وأوفرها ربحاً، ويليه الزيتون حيث انتشرت زراعته وكثر إنتاج الزيت وصنع الصابون.

الصناعة

ازدهرت في أيام الأمير فخر الدين الصناعة اليدويّة المنزليّة، ولا سيما صناعة الحرير الطبيعي الذي ذاعت شهرته وتنافس التجار الأجانب على شرائه نظراً لجودته. وكانت صناعة الزيت والصابون تلي صناعة الحرير من حيث الأهميّة، وانتشرت محالج القطن في معظم مناطق الإمارة، وبلغ إنتاج صيدا منه أربعين قنطاراً في إحدى السنوات.

ومن الصناعات التي شاعت في عهد فخر الدين دباغة الجلود وصناعة الشمع، وكثيراً ما كان فخر الدين يهدي من مصنوعات بلده إلى كبار موظفي الدولة العثمانيّة وبعض أمراء أوروبا.

التجارة

برع الأمير فخر الدين في تنشيط التجارة لعدة أسباب نذكر منها:

- انتشار الأمن براً وبحراً وحماية الشواطىء من القراصنة.

- تسهيل فخر الدين أعمال التجار الأجانب ورعايته لهم، وتؤكد ذلك شهادة قنصل البندقيّة في حلب حين قال إن «الأمير دأبه حماية التجار من تعدي القرصان وترغيبهم في الانتقال إلى ثغوره».

وكانت السفينة الأوروبيّة ترد إلى الموانىء اللبنانيّة وخصوصاً في صيدا وبيروت وطرابلس محملة بالبضائع لبيعها في لبنان، من المنسوجات والفولاذ والزجاج والورق وتعود محملة بالحنطة والزيت والصابون والقطن ورماد بعض الأعشاب الصالح لصنع الزجاج.

وقد بلغ عدد السفن التي رست في ميناء صيدا عام ١٦٣١ ثلاثين سفينة كبيرة.

ومما ساعد على قدوم التجار الأجانب إلى لبنان تسامح فخر الدين معهم والسماح بإنشاء قنصليات ترعى شؤونهم ومصالحهم.

وكان فخر الدين يتقاضى ٣ في المئة من سعر البضاعة كضريبة وقد قدّر دخله سنة ١٦٢٤ بـ ٩٠٠ ألف فرنك ذهباً، وقيل إنه بلغ المليونين.

وفي التجارة الداخليّة، كان لكل مدينة أو منطقة سوق يقصدها الناس لتبادل البضائع وبيعها وشرائها مثل سوق صيدا وسوق الخان.

هذا الازدهار التجاري والاقتصادي ساعد الأمير فخر الدين على دفع الضرائب التي كانت مفروضة عليه، وتمكن من النهوض بدولته وإعمارها.

العمران

اهتمام الأمير فخر الدين بالعمران لم يكن أقلّ من اهتمامه بالزراعة أو التجارة، وتأثر أيضاً في هذا المجال بالفن الإيطالي. ولما عاد إلى لبنان من أوروبا اصطحب معه مهندسين وبنائين إيطاليين لتصميم وتنفيذ المشاريع العمرانيّة. ولم تستطع بعثة من الفنيين التوسكانيين وصلت إلى لبنان عام ١٦٣١ إكمال مهمتها بسبب حملة أحمد كجك عام ١٦٣٣، ومن هذه البعثة النحات فرنسيس تشيولي والمهندس فرنسيس فانيي والخباز بطرس كيليني والطبيب متى نالدي.

وشيّد الإيطاليون «قصر الأمير الفخم في بيروت على الطراز الايطالي، مع الجنائن والاسطبلات وأقفاص الوحوش اللاحقة به». ووصف الزوار الأجانب هذا القصر بأنه من «عجائب الشرق».

وتمّ في عهد الأمير بناء الجسور ومنها جسر نهر الكلب؛ والحمّامات كالحمّام البراني في صيدا؛ والخانات كخان الإفرنج في صيدا. وفي عهده أدخل القرميد الأحمر والواجهات الزجاجيّة على البناء في لبنان.

واهتم الأمير بتحسين المواصلات فشقّ الطرقات على رغم معارضة الشعب لذلك حتى لا يخسر من أرضه، ثم ليظلّ بمأمن من وصول الجيوش. إلا أن الأمير شقّ طريقاً من الشمال إلى الجنوب وآخر في البقاع وربط بينهما بثلاث طرق بحيث تنطلق اثنتان من صيدا والثالثة من بيروت.

واقتصرت وسائل النقل أيام فخر الدين على الحيوانات، حيث لم يعرف لبنان الدولاب قبل عهد المتصرفيّة أواسط القرن التاسع عشر.

الحياة الفكريّة

انحصر العلم حتى عهد فخر الدين برجال الدين، إذ كانوا يدرسون العلوم الدينيّة في الكنائس والجوامع، واقتصر الكتاب المدرسي على الكتب الدينيّة، حيث كان الرهبان يهتمون بتعليم الكتاب المقدس، فأدخلوا مطبعة دير مار قزحيا سنة ١٦١٠ وهي أقدم مطبعة في لبنان، لا بل أول مطبعة دخلت إلى الشرق الأدنى.

وفي عهد الأمير فخر الدين، تمّ إرسال البعثات إلى روما لتلقي العلوم وتعلّم اللغات الأجنبيّة، وليعودوا بعدها إلى لبنان وينشروا ما تعلموه بين الناشئين.

وقبل ذلك، كان الأوروبيون يهتمون بحضارة الشرق وتجارته، وشغفوا بالعلوم الشرقيّة، حتى أصبح الاستشراق من مظاهر الحضارة الأوروبيّة. فدرس الأوروبيون تاريخ الشرق وحضارته وأسسوا المدارس لهذه الغاية. وأوفدوا البعثات منذ عهد المماليك واستمرت في العهد العثماني في فلسطين وسوريا ولبنان.

ودفع حب الأمير للعلم إلى تشجيعه الإرساليات الأجنبيّة على تأسيس المدارس في لبنان، فكان منها البعثة الكبوشيّة عام ١٦٢٠، وأتى كذلك الأمير فخر الدين ببعض العلماء من أوروبا وجمع حوله شعراء الزجل.

وساعد وجود الإرساليات الأجنبيّة في لبنان على الاطلاع على وضع الإكليروس الماروني الذي كان بحاجة إلى التعمق في العلوم الدينيّة، وأطلعوا البابا على ذلك، فما كان منه إلا أن أمر باستقبال طلاب من موارنة لبنان في مدارس روما. لكن اللغة اللاتينيّة وقفت حاجزاً أمام ذلك، فاضطر البطاركة إلى إنشاء مدارس ابتدائيّة في لبنان تعلم اللغات السريانيّة والعربيّة واللاتينيّة والإيطاليّة، وتختار المتفوقين من تلاميذها وترسلهم إلى إيطاليا.

وفي سنة ١٥٨٢، أنشأ البابا، بالاتفاق مع بطريرك الموارنة في لبنان، مدرسة

في روما استمرت حتى عام ١٨١٢، وتحوّل تلاميذها بعد أغلاقها إلى مدارس روما. وقد بلغ الكثيرون من طلابها درجة علميّة ممتازة، وعمل بعضهم في مدارس أوروبا وجامعاتها مثل جبرائيل الحصروني، وإبراهيم الحاقلاني، اللذين علما اللغات الشرقيّة من سريانيّة وعربيّة في جامعات إيطاليا وفي الكليّة الملكيّة في فرنسا، وجرجس عميرة، ويوحنا الحصروني ويوسف السمعاني الذي أصبح مؤرخاً لدى ملك الصقليين.

وقام هؤلاء وغيرهم بترجمة مؤلفات عربيّة إلى اللاتينيّة والإيطاليّة، ونسقوا المؤلفات العربيّة في المكتبات الأوروبيّة، كما كتبوا في اللاهوت والفلسفة، وقد رجع معظم هؤلاء التلاميذ إلى لبنان، وأسسوا المدارس في القرى اللبنانيّة، واشتهر من بينها مدرسة عين ورقة، عام ١٧٨٩. فكان هؤلاء طليعة رجال النهضة العربيّة الحديثة التي انتقلت فيما بعد إلى كافة أرجاء البلدان العربيّة.

فخر الدين وتوحيد الطوائف

إن الحديث عن توحيد الطوائف في شعب واحد غير وارد إطلاقاً في عصر لم تكن فيه القوميات ومفهوم الشعب والوطن والأمة قد تبلورت، إنما كانت العلاقات بين الأفراد علاقات طوائف وانتماء طائفي وديني.. كما أن الحديث عن العلاقة التي قامت بين الموارنة والدروز، يفترض بنا دراسة أهداف فخر الدين السياسية والظروف التي حتمت العلاقة بين الفئتين في الفترة الثانية من حكم فخر الدين في الإمارة بعد عودته من توسكانا؛ رغم أن فخر الدين قد رغب من قبل هذه الفترة التعاون مع الموارنة، وقد طلب من البابا الإيعاز للموارنة بالتعاون معه. إلاّ أن هؤلاء لم يتحمّسوا كثيراً في بادىء الأمر.

والواقع أن فخر الدين رغب في التعاون مع الموارنة لأسباب كثيرة، وأيقن بأهمية هذا التعاون خاصة بعد عودته من أوروبا، وهو يفكر بخطة تربطه حضارياً بأوروبا. من هنا، عمل على الارتباط بالموارنة لتأمين الانفتاح على

الغرب· ولعب دور الوسيط بين الإمارة والغرب.

إلى جانب ذلك، أدرك فخر الدين لدى عودته أهمية تكريس السياسة في خدمة المجتمع؛ هذا المجتمع الذي أيقن فخر الدين أنه لا يقوم على الدروز فقط، بل على المسيحيين أيضاً. من هنا تطلع إلى الشمال لربط المسألتين.

كما أنه من أهداف فخر الدين توسيع رقعة إمارته. لذلك حاول الإنطلاق والتوسع شمالاً وجنوباً، وحاول فخر الدين التعاون مع الموارنة تماشياً مع سياسته التوسعية. بالإضافة إلى أن فخر الدين حاول أن يحكم انطلاقاً من المفهوم الدرزي لاستقلالية الطائفة والحكم الذاتي، دون التطرق يوماً إلى مفهوم الوطن والشعب والوحدة بين الطوائف.

كما أن فخر الدين، من خلال تعامله مع المسيحيين، حاول أن يشكل وحدة قوية داخلية إلى جانب التحالفات الغربية للقضاء على أعدائه آل سيفا من جهة، وعلى السلطنة العثمانية من جهة أخرى.

إذن، لا يمكننا الاعتبار بأن فخر الدين سعى إلى توحيد الطوائف اللبنانية (على حد تعبيره) في شعب واحد؛ بل غاية الجمع بين المسألتين الدرزية والمارونية كانت لأهداف رغب فخر الدين في تحقيقها (أهداف سياسية) وليس لتوحيد الطوائف في شعب واحد.

(إستناداً إلى تاريخ لبنان منذ القرن السابع عشر حتى أيامنا هذه عادل إسماعيل).

الفصل التاسع

المعنيون بعد فخر الدين

بعد مقتل فخر الدين في الأستانة، ساند العثمانيون الحزب اليمني بزعامة آل علم الدين في حكم البلاد، وعيّن أحمد كجك عام ١٦٣٣ الأمير علي علم الدين أميراً على الشوف، فلاحق المعنيين، واضطهد أنصارهم وبطش ببعضهم ونفذ مجزرة بالتنوخيين في عبيه، إذ قتل كبارهم وصغارهم من الذكور.

وفي هذا الوقت دبر والي دمشق الكجك مكيدة للأمير يونس، أخ الأمير فخر الدين، حيث أعطاه الأمان وعندما نزل إلى دير القمر قبض عليه الجند مع ابنه الأصغر، فيما استطاع الأكبر ملحم أن ينجو.

وعن هذا الأمر روى الأب فيتالي، الذي زار لبنان سنة ١٦٣٣ وكتب عنه تقريراً في سنة ١٦٤٣: «إن قائد الحملة العثمانيّة قبض على الأمير يونس وعلى ولديه. وبينما كان الأتراك يسومونه العذاب ليدلهم على مخبأ ماله التفت إلى ابنه الأكبر وقال له بالعربيّة: هؤلاء بعد أن ينزعوا منا مالنا لا بد أن ينزعوا أرواحنا، فاذهب إلى المكان الفلاني، حيث أخفيت بعض الدراهم، ودلهم عليها. وفيما تراهم منشغلين بجمعها إسع لنفسك بالنجاة. ثم قال للأتراك: اذهبوا برفقة ولدي هذا، فهو يدلكم على مخبأ مالي، فذهبوا مع الشاب واستدلوا منه على المكان وحفروا فعثروا على المال وسروا به السرور كله. وفيما كانوا منهمكين بجمعه حانت للشاب فرصة للهرب. وكان على جانب من البسالة والدهاء. فما أن التحق بذويه حتى جمع منهم جيشاً وقاده لمحاربة الأتراك، وانتصر عليهم في موقعتين. بيد أن عمه فخر الدين كتب إليه من الأستانة ليكف عن القتال على أمل أن يستعيد منصبه. فأطاع وانزوى.

وقبل ذلك، استطاع الأمير ملحم أن يواجه الأمير علي علم الدين وينتصر عليه وفرّ هذا إلى دمشق ملتجئاً.

وحاول الكجك أن يعيد الأمير علي علم الدين إلى حكم الشوف. لكن علي

لم يستطع تثبيت حكمه وانتشرت الفوضى في جميع المناطق الشوفيّة بسبب المقاومة التي تزعمها الأمير ملحم. وهذا ما حمل الدولة العثمانيّة على الاعتراف بالأمير ملحم حاكماً على الشوف وكسروان فسار على سياسة عمه المتسامحة ونجح في تثبيت الأمن واستيفاء الأموال للدولة.

موقعة وادي القرن

ظلّ الأمير علي علم الدين يعمل للوصول إلى حكم الشوف. وما انفك عن الوشاية بالأمير ملحم لدى ولاة دمشق حتى تمكن من إثارة نقمة والي دمشق بشير باشا على الأمير ملحم بعد أن كسب رضاه بالمال والهدايا.

وسار الوالي بشير على رأس جيش كبير نحو البقاع وعند وصوله إلى وادي القرن، تصدى له الأمير ملحم مع حلفائه الشهابيين وانتصروا عليه، فعاد مهزوماً إلى دمشق ليصب نقمته على علي علم الدين فسجنه، محملاً إياه مسؤوليّة الهزيمة التي لحقت به.

وقد حصل الأمير ملحم في سنة ١٦٥٤ على بلاد صفد فاتسعت رقعة إمارته وشملت بالإضافة إلى الشوف البترون وجبة بشرّي وكسروان.

وفي سنة ١٦٥٨، كان الأمير ملحم متجهاً إلى صفد لجباية الضرائب فأصيب بالحمى وعاد إلى صيدا حيث مات وله ولدان هما قرقماز وأحمد.

الأميران أحمد وقرقماز

حكم الأميران أحمد وقرقماز بعد موت أبيهما الأمير ملحم عام ١٦٥٨ واشتركا في الحكم. لكن الولاة العثمانيين، وعلى عادتهم، لم يتركوا لهما الطمأنينة. وفي سنة ١٦٦٠ اتهم والي دمشق أحمد باشا الكبرلي الأمراء الشهابيين بالاعتداء على حقوقه. وتوجه إلى الأميرين المعنيين لتسليمه أميرين شهابيين هما: علي ومنصور. لكن أحمد وقرقماز رفضا طلبه، فاستبدل ذلك بطلب فدية ماليّة قيمتها ٤٠٠ ألف قرش، فلم يدفعا. فسيّر حملة لتعقبهما فلجآ إلى كسروان وجبيل إلى عند آل الخازن وحمادة، وتسلم حكم الشوف الأميران محمد ومنصور ولدا

الأمير علي علم الدين.

ولكن بعض المراجع تشير إلى أنه في سنة ١٦٦٠ أنشأت السلطنة العثمانيّة ولاية صيدا من سناجق بيروت وصفد وصيدا بهدف مراقبة أمراء الشوف الذين أصبحوا تابعين لوالي صيدا.

وكان الأميران أحمد وقرقماز حذرين في علاقاتهما مع والي صيدا محمد باشا الأرناؤوط، فامتنعا عن النزول إلى صيدا، مما دفع بالوالي إلى استدراجهما سنة ١٦٦٢ إلى كمين في عين مزبود لحجة التفاوض معهما، وغدر رجاله بهما فقتل الأمير قرقماز وأصيب الأمير أحمد لكنه نجا بأعجوبة. وبعد ذلك عيّن والي صيدا محمد بن علي علم الدين اليمني أميراً على الشوف.

عودة الأمير أحمد إلى الحكم

ونهاية الإمارة المعنيّة

بعد عزل محمد باشا الأرناؤوط عن ولاية صيدا سنة ١٦٦٤ جمع الأمير أنصاره من القيسيين وانتصر على الأمير محمد علم الدين وتسلم الإمارة ثم هزم اليمنييّن في موقعة القلقول عند برج بيروت عام ١٦٦٦. وعلى الرغم من هزائم اليمنيين المتلاحقة، وعدم قبول سكان الشوف بحكم آل علم الدين، فإن الأمير موسى علم الدين ظلّ يسعى عند أصحاب الشأن في الأستانة لإزاحة الأمير أحمد، واستحصل على فرمان من السلطان بتعيينه مكان الأمير أحمد فعاد إلى الشوف مع قوة عثمانيّة أمدّه بها ولاة دمشق وحلب وصيدا فاختفى الأمير أحمد موقتاً عن الأنظار.

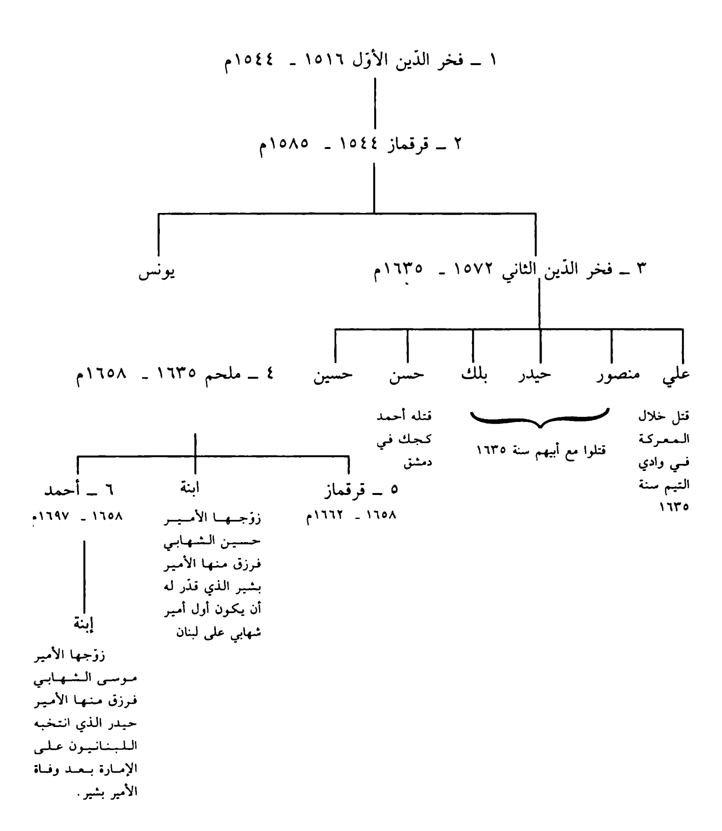
لكن الأمر لم يدم طويلاً مع الأمير موسى علم الدين، حيث عارضه اللبنانيون وثاروا على حكمه. عندها خرج الأمير أحمد من عزلته وجمع أنصاره واتجه إلى صيدا، ففرّ موسى علم الدين إلى صيدا، عندها لم يجد والي صيدا بدّاً من الموافقة على عودة الأمير أحمد وتسلّمه الإمارة سنة ١٦٩٤، فظلّ حاكماً حتى وفاته سنة ١٦٩٧ بدون وريث، وانقطعت به سلالة المعنيين لأنه كان فقد ولده

الوحيد عام ١٦٧٩، أما ابنته فقد تزوجت من أمير شهابي من حاصبيا وولدت الأمير حيدر وأخته تزوجت من شهابي من راشيا فولدت الأمير بشير.

وبموت الأمير أحمد انتهت الأسرة المعنيّة التي حكمت لبنان مئات السنين وأعطت الأمير فخر الدين الثاني الكبير الذي يعتبر بحق من أعظم رجالات السياسة الذين عرفهم لبنان. وانتقلت الإمارة بعدهم إلى حلفائهم الشهابيين.

ملاحق

شجرة العائلة المعنيّة



ملحق رقم (١)

نَسَب آل معن

كما ورد في ذيل النسخة م «. . . فإني نقلت هذه النسبة المباركة على النسب المنقول المكرم على خط الشريف علي بن مولانا الإمام نصير الدين محمد الطوسي وذكر أنها نقلت عن خط أبيه عن نسب تقدم لهم تاريخ نقلها في شهر رجب الفرد من شهور سنة خمس وخمسماية ونقلت أيضاً نسبة قديمة بعد الذي نقلها عن خط الشريف علي وساروا بها إلى دمشق المحروسة بعد وفاة أبيهم نصير الدين محمد الطوسي لتكون في يده إثباتاً للشرف على رحمه الله تعالى. ولما توجه الإمام أحمد ابن الإمام نصير الدين أثبتها على القضاة في دمشق المحروسة و[تواترت] فمما نقل من الإثباتات أنه ثبت وصح بين أيادي مولانا وسيدنا جمال الدين مفتي المسلمين ثقة الملوك والسلاطين أبي عبد الله محمد بن الإمام العالم صدر الدين أبي الربيع سليمان بن مسوم البصروي المالكي الحاكم بمدينة دمشق ومضافاتِها أدام الله ملك مالكها وذلك نهار الاثنين بالرابع والعشرين من شهر صفر الخير من شهور سنة عشر وسبعماية من الهجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التحيّة وذلك ثبوتاً شرعياً واعتباراً مرعياً بإثبات العدالة المرضيّة التي يمثلها ثبت بين يدي مولانا وسيدنا قاضي القضاة حجة الإسلام وفخر الأنام صدر مصر والشام بقيّة السلف الكرام مؤيد الشريعة والأحكام محمد الأزيجي الحنفي الحاكم بمدينة دمشق المحروسة سنة إحدى عشر وسبعماية وأنه أيضاً قد ثبت وصحّ بين يدي مولانا وسيدنا الشيخ الإمام العالم العلامة قاضي القضاة وحاكم الحكام حجت الإسلام والمسلمين وبركة الملوك والسلاطين خاصة مولانا أمير المؤمنين سليمان بن الشيخ الإمام العالم العلامة بدر الدين الدمشقي الشافعي الحاكم بمدينة

دمشق المحروسة سنة ثمان وسبعماية وأنه قد ثبت لديهم أحسن الله إليهم نسب الشرف المنقول عن خط الشريف بالنقل المثبوت إلى وقتنا هذا وذلك لدى مولانا الإمام العلاّمة قاضي القضاة حاكم الحكام حجت الإسلام والمسلمين علي بن سليمان بحلب المحروسة سنة خمس وثمانين وسبعماية أدام الله تعالى أيامه وختم بالصالحات أعماله وأعاد علينا من بركاته وأنفذ أمره وأحكامه في مجلس حكمه وقضاه بحضرة العدول ثبّت الله أشهادهم ورحم آباءهم وأجدادهم وغفر لنا ولهم ولجميع المسلمين أجمعين وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

فأول النسب الشريف الطاهر العالي الأمير نعمان... الحميري اللخمي بن بيت اللعن ابن قابوس بن ماء السماء بن المنذر بن النعمان الأكبر بن جرهم بن تبع الأقرن الذي كسا بيت الله الحرام ابن تبع الأول ابن المسعودي بن سبأ بن الهدهاد بن برهة بن كهلان بن الراس بن حمير بن عبد شمس بن [يعرب] بن قحطان بن إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم عليه السلام بن آزر بن أرام بن سام بن نوح عليه السلام ولد آدم عيله السلام.

ولما كانوا ساكنين اليمن ورحلوا منها سكنوا العراق والحيرة والمعرّة الجوانيّة فقتل كسرى أنوشروان النعمان الأكبر وراه لخم النعمان الأصغر فلما نال مرتبة أبيه في العلو والشرف رحل معه اثني عشر طايفة أصحاب النسب إلى معرة حلب وهم الأمير شلهوب بن الأمير خالد والأمير مسعود بن رسلان بن مالك والأمير فوارس والسيد عزايم والسيد عبد الله والسيد عطير والسيد حصن والسيد هلال والسيد كاسب والسيد شجاع والسيد نمر والسيد شرارة وسكنوا المعرّة مدة طويلة من الزمان وزوج مالك النعمان ابنته للأمير معن وصاروا أهليه أخذوا منهم وأعطوهم.

وأما نسب السادات الأمراء بيت معن من سلالة بني أيوب سلاطين بغداد وثغورها والشام وثغورها ومصر وثغورها وهم من سلالة الملوك من سلالة إدريس عليه السلام وعمارة حصن الأكراد شغل أجدادهم والحلم والكرم لهم ومات النعمان في معرّة حلب ودفن بها وبنا عليه ولده المنذر والأمير معن قبة ورحل

الأمير معن مع الملك المنذر إلى بلاد البقاع ومنها رحلوا إلى تيروش ولهم قصة مع البقاعيّة وسيأتي ذكرها.

وسكن الأمير معن دير القمر وسكن الأمير شهاب بوادي التيم بقرية حاصبيا وسكن الأمير رسلان بحصن أبو الحبيش بوادي التيم ومنها رحل إلى سن الفيل بأرض بيروت وله عداوة مع النابغة من الزوق ورحل سكن خلدة ومنها رحل إلى عرامون ومن عرامون رحل إلى الشويفات وقطن بها.

وأما الملك المنذر سكن بحصن سرحمول وتفرقت الطوايف في القرايا والنواحي وذلك قبل ظهور الإسلام وفتح بيروت، وأما الملك المنذر الحميري اللخمي لم يبق أحد من الطوايف بقدر المذكورين ولا أحد يتعدّى على أهله ولا يسمح لهم أن يزوجوا لهم أميرات إلى غير بعضهم البعض حتى لا يختلط نسبهم بنسب غيرهم من الطوايف رحمه الله تعالى لأنه من أكبر منهم وأكبر البيوت وأكبر أهل الزمان من الجاهليّة إلى الآن وانقطعوا مرتين ويفضل منهم أمير ويرد يعتمر البيت وكان منهم أمير صايغ بقا يطالع من اصطبله أربعين فرساً وسرج مفرق عمل جنزير وقيد فيه سبع براغيث وكتب آية الكرسي على حبة الأرز.

وأما ناصر الدين الحميري اللخمي وهم مماجد قبل ظهور الإسلام ومفاخر وماء السماء هي أمرات سميت ماء السماء لعظم حسنها وجمالها وحشمتها وطهارتها وعفة نفسها وكان أبوها مالك يحبها لأنه ما كان في وقتها يوجد مثلها وكانت من بني لخم وكان زوجها من بني كندة رجل يسمى كبْو النظر وابنها زهير كان والد المنذر ملك العرب في وقت الجاهليّة، وهو أكبر العرب أصلاً وفرعاً وكان ولده النعمان من بعده أكتر حرم من أبيه لكن أبوه أعدل منه وكان الملك النعمان في وقت كسرى أنو شروان وكان لأنو شروان أربعة أولاد شيرسان و. . . وأزدشير وكان. . . أعقلهم وأدينهم فعصى الملك النعمان على كسرى [فجمع كسرى] عسكراً من العرب والعجم وبعثه إلى النعمان مع ولده شيرسان ومت إياس ابن قبيصة الأعرابي وكان ذلك في وقت الحكيم [يزدجرد]».

ملحق رقم (٢)

رسالة البابا بيوس الخامس إلى فخر الدين

«إلى فخر الدين أمير الدروز ونيقوميدية وفلسطين وفنيقية»

«سلام أيها الرجل الشريف. وليحلّ عليك نور النعمة الإلٰهيّة»

«عرفنا الأخ المحترم سركيس، رئيس أساقفة دمشق الماروني سركيس الرزي، الذي أمّ رومية لزيارة ضريحي الرسولين القديسين، عطفك العظيم على أولادنا المسيحيين، وخاصة الموارنة قبلنا مدينين لك كثيراً، لأن ما تفعله نحو أولادنا تفعله نحونا. ولما كان رئيس الأساقفة المذكور عائداً إلى إخوته، رأَينا أن نكتب إليك هذه الرسالة دليلاً على محبتنا لك. وأوعزنا إليه أن يبلغك انتظارنا بكل الجوارح الفرصة التي تتيح لنا أن نثبت لك عظم هذه المحبة، وشدة ارتياحنا إلى حسناتك نحو أولادنا المسيحيين. وقد أمرنا رئيس الأساقفة المذكور أن يسلمك بعض التحف، أملاً أن تحوز لديك قبولاً، وإن صغيرة، لأنها دليل على ميلنا الخاص إليك. ونحثك ثانياً وثالثاً أن تواصل رعايتك لأولادنا، خاصة الموارنة، وأن تشمل بحياتك حامل هذه الرسالة. وهو يفصح لك عن رغبتنا الشديدة في مناصرتك على الأتراك الظلمة، أعداء الطرفين. حتى إذا توسعت في تخليص هذه الأماكن من نيرهم القاسي، عاد سكانها إلى الدين القويم، مجداً لله وخلاصاً للنفوس، ليضيء الإلٰه قلبك برحمته ويسدد في طريق الحق خطواتك.

«أعطي في رومية بقرب مار بطرس في ١٦ كانون الثاني ١٦٠٩. وهي السنة الرابعة لحبريتنا».

وحمّل البابا أيضاً المطران سركيس كتباً خاصة إلى كل من إلياس الرزي والشدياق فرج ويونس حبيش ويوسف خاطر، مقدمي الموارنة.

ملحق رقم (٣)

سلاطين بني عثمان

١ ـ عثمان الأول ١٢٩٦ ـ ١٣٢٣

٢ ـ أورخان ١٣٢٣ ـ ١٣٦٠

٣ ـ مراد الأول ١٣٦٠ ـ ١٣٨٨

٤ ـ بايزيد ١٣٨٨ ـ ١٤٠١

٥ ـ محمد الأول ١٤٠١ ـ ١٤٠٩

٦ ـ مراد الثاني ١٤٠٩ ـ ١٤٥١

٧ ـ محمد الثاني ١٤٥٣ ـ ١٤٨١

٨ ـ بايزيد الثاني ١٤٨١ ـ ١٥١٣

٩ ـ سليم الأول ١٥١٣ ـ ١٥٢٢

١٠ ـ سليمان بن سليم ١٥٢٢ ـ ١٥٦٦

١١ ـ سليم الثاني ١٥٦٦ ـ ١٥٧٦

١٢ ـ مراد الثالث ١٥٧٦ ـ ١٥٩٤

١٣ ـ محمد الثالث ١٥٩٤ ـ ١٦٠٣

١٤ ـ محمد الأول ١٦٠٣ ـ ١٦١٧

١٥ ـ مصطفى أخو السلطان أحمد ١٦١٧ خلع بعد ٣ أشهر

١٦ ـ عثمان الثاني ابن السلطان أحمد ١٦١٧ خلع ورجع مصطفى

١٧ ـ مصطفى ١٦٢١ ـ ١٦٢٣

١٨ ـ مراد الرابع ١٦٢٣ ـ ١٦٣٩
١٩ ـ إبراهيم ابن السلطان أحمد ١٦٣٩ ـ ١٦٤٨
٢٠ ـ محمد الرابع ابن إبراهيم ١٦٤٨
٢١ ـ سليمان الثاني ابن إبراهيم ١٦٤٨
٢٢ ـ أحمد الثاني ابن إبراهيم ١٦٩٠
٢٣ ـ مصطفى الثاني ابن محمد ١٦٩٠
٢٤ ـ أحمد الثالث ابن محمد الثاني ١٧٠٣ ـ ١٧٣١
٢٥ ـ محمد الأول ابن مصطفى الثاني ١٧٣١ ـ ١٧٥٤
٢٦ ـ عثمان الثالث أخو محمود ١٧٥٤ ـ ١٧٥٨
٢٧ ـ مصطفى الثالث ١٧٥٨
٢٨ ـ عبد الحميد الأول ١٧٧٣ ـ ١٧٨٩
٢٩ ـ سليم الثالث ابن مصطفى ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧
٣٠ ـ محمود الثاني ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩
٣١ ـ عبد المجيد ١٨٣٩ ـ ١٨٦١
٣٢ ـ عبد العزيز ١٨٦٠ ـ ١٨٧٦
٣٣ ـ عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ـ ١٩١٨
٣٤ ـ محمد الخامس ١٩١٨

المراجع

تاريخ الأمير فخر الدين الثاني ـ الشيخ أحمد بن محمد الخالدي الصفدي، منشورات الجامعة اللبنانيّة ١٩٦٩.

فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان ـ الخوري بولس قرألي، دار لحد خاطر.

تاريخ لبنان ـ فيليب حتّي، دار الثقافة.

تاريخ سوريّا ـ جرجي ينّي، دار لحد خاطر.

تاريخ لبنان الحضاري ـ يوسف السودا، دار النهار للنّشر.

المحتويات



Edito Creps
International